عنزتان بالقطيع

بقلم

علي أرشيد التل

١

وأخيراً فصلت تباشير فجر يوم العرس الأقحوانية الخيط البيض عن الخيط الأسود. بلطف العاشق الولهان، أخذ الضوء الخجول يرفع خمار الظلمة المسدل عن فضاء مدينة اربد المستخدرة في واديها الآمن بين جبال عجلون ومرتفعات الجولان. ولما أشتعل الأفق الشرقي كالحريق، ألتهبت النيران بغيوم الشفق البيضاء تسبح كالذهب على نسيم عليل في فضاء صافي أختفت منه النجوم، عدى الزهراء التي لازالت تومض ماسية في لهب السماء الأزرق. وراء كثب بادية الشام، كانت شمش (ملكة النور) تعدّ مركبتها البلورية على بوابة الأفق الساطع بالأنوار تقودها أربعة عجول رحمانية جاهزة لتنطلق في مسيرتها اليومية. ترقبا لظهورها، لألأ الفضاء وضيحا مستبشرا بأخر يوم سبت من نُهُر شهر آب اللهاب. الى الشمال، كحائط يصل الأرض بالسماء، أبتسم جبل الشيخ بعل في عُلاه يومض لازورد عمامته الثلجية فوق قبب لبنان، درعا يحمي دمشق، عروس هضبة حوران، منّ شرّ قرصنة سفن القوط تجوب أموج البحر الأبيض الهادر ودوما تهدد بلاد العرب بالدمار.

على شقشقة جوقة العاصفير تتقافز سعيدة على غصون الأشجار الغضة، أشرق وأنار بصيص خافت من الضوء، يتسلل كلصّ حدق ماهر الصنعة من خلف منافذ شبابيك وأبواب البيوت السابتة ويزيل الوحشة عنها. وعندما بدأ حمام ياكريم يهدل بالتسبيح من فوق سطح الجيران، تأكدت وداد أن النهار قد صبّح. مباشرة، وكما كانت تتنظر، أرتفعت أصوات الموئذنين بالتكبير من على مائذن المدينة، تدعوا المؤمنين الى الصلاة فأخذ أهل أربد يستيقضون كسلى من سباتهم العميق.

من جانبها بالسرير الى جوار النافذة، هللت وداد بصوت خافت ترحب بالأذان. على تؤده مكثت المرأة في سريرها تترقب الصباح أن يضئ غرفة النوم ويمحي العتمة فذلك عادةً أشارتها لتنهض وتبدأ يومها. وكأن تململها الخفيف قد أيقض زوجها. فجأة، حسّته يتحرك في جانبه على الفرشة. سكنت وداد متهيبة من أن تكون قد أيقظته وهي تنتظر الدقائق الأخيرة من الليل لتولي والفجر ليملئ الحجرة نوراً، فعيناها بعد لم تميزان الأشياء من حولها بوضوح لتترك السرير دون أن تتعثر. كانت وداد تعلم أنها إذا ما أضأت نور الكهرباء فستوقض زوجها بالتأكيد، وبدل أن يصبّحها بالخير كان يتقلب ويتذمر ويأمرها أن تطفأه بالحال. لذلك أعتادت وداد أن تبقى راقدة حتى يصبّح الصباح عليها. كانت قادرة أن تقرأ نوايا زوجها كالصفحة المفتوحة، ففي ذلك نجاتها من لسع ضرباته القاسية. بدأت المرأة تفكر قلقة، "في أية لحظة قد يستدير صوبي وفي عينيه تلك النظرة الغريزية الواهجة. . ."

صار كل جسدها يهتز قرفا ونفورا من قربه. إذا ما نقرها بأنتصاب ذكورته ليشعرها بتوده لأنوثتها، كانت وداد تشعر بغثيان شديد في معدتها وتكاد أن تتقيء. في مثل تلك الآناء، أذا واتت الرغبة الجنسية زوجها وأعتلاها، كانت ترقد متجمدة في حيرة بينما كان الحب والبغض يلعبان في قلبها الهائج كرها من الذي يفعله بها.

بعدما آوت وداد وزوجها الى الصمت الليلة الماضية، لم تنم أكثر من ساعتين وذلك لشدة الأرهاق. ولما جائها الكابوس الذي صارت تراه أثناء النوم خلال الليالي القليلة الفائتة وبه كانت تشاهد العروس وهي ترتدي فستان زفاف مكون من الرقع البالية وملطخ بالدماء أفاقت قلقة ومباشرة صارت تقرأ الطلاسم والتعاويذ من شرّ الشيطان الرجيم. أمضت وداد غالبية ساعات الليل بين النوم والسهاد تحدق بالحائط وتنتظر يوم العرس ليبدأ فتتربع دوائر حياتها وتتعرف على أطرافها وحدودها وتفهم أسباب العيش في هذا الدغل الكثيف. في هذه الصبيحة بالذات كانت وداد واثقة تمام الثقة أن زوجها يعتقد أن من واجبه محاولة مضاجعتها كما حاول أن يفعل قبل نومهما الليلة الماضية ليحفض حقه بها في أي وقت رغب. لهنيهة سكون ثقيل وكانا مستلقيين الى جوار بعضهما تحت اللحاف وكتفاهما متلامسان، شعرت وداد أن جسد زوجها يرتعش بحميم العناق وصار يرصّ كتفه الى كتفها فتصلب جسدها خوفا مما هو آت. غير أن وداد في أخر لحظة تمالكت زمام أمرها وردته ردّ جميلا وهي تذكّره بصوت أجّش، "ليس الآن يا نادر. ألست متعبا؟ أنني مرهقة من الحفل ومن الصياح والرقص والغناء...." وبعد صمت هنيهة قصيرة أضافت متكابرة رغما عن نفسها بصوت لا حرارة فيه ، "بالغد ستكون عريساً. أحتفض بنشاطك لعروسك."

أسفت وداد لقولها الحانق ذاك وهي تقوله وقد خمّنت أنه أنما اراد الأعتذار منها لما هو آني وأنه أراد فقط أن يحيطها علما بأن ذكورته لا تزال ترغب أنوثتها وأن زواجه الثاني لن يؤثر على الأشياء الأساسية التي تصل بينهما كرجل وامرأة.

غير أن نادر بخيلاءه المعتاد كان قد أخذ قولها مأخذ الجدّ فأبتسم لنفسه وهو يتمتم في الظلمة راضيا من نفسه، "وأخيرا بدأت الغَيرة تُشعل نيران الضَغن في صدر وداد الجبّارة!" خنق نادر سروره في قلبه لهذا الخاطر. وكي لا يشعرها بأنتصاره، أكتفى بأبتسامة الرضا في الظلمة.

بعد أن ردته، أنتظرت وداد بصبر من دون أن تحرك ساكناً لتسمع شخيره وتطمئن أنه قد نام. عادةً، وقتها فقط تكون واثقة من أنه لن يجدد المحاولة قبل أن تغادر السرير في الصباح. لكنه على غير عادته تلك الليله، مثلها لم ينم مباشرة.

أغمض نادر عينيه، وقد ثبت وقوي حدسه بغرور فلو أنه أصرعلى حقه كزوج، فأنه حتما سيسكر بخمرة أستسلامها وهو يفترشها مرغمة كالعادة. مرتاحا لتلك الفكرة، أنلقب على جنبه فأنقلبت هي الأخرى على جنبها فكانا ظهر لظهر من دون ان يتلامسا. هكذا أمضيا الليل، كل على أقصى حافته من السرير وبينهما فراغ.

كان نادر مثلها متعبا ولازال ضجيج حفل ليلة التعليل التي أحيتها وداد رغما عنه ونكاية بحماتها وبناتها، يرصّ أذنيه. حاولت أم نادر أكثر من مرة أقناع أبنها أن يطلق وداد. أقترحت عليه بخبث مبطن وكأنها أنما تريد صالحه فقط، "والله ياولدي زوج الأثنتين غلبان. لماذا لا تسرح وداد باللتي هي أحسن أفضل ما تتزوج عليها؟ أريح لك وأريح لها، أليس كذلك يا أبا نادر؟"

غير أن أباه الذي كان يأمل أن تكون زوجة أبنه الثانية أكثر خصبا وحظا بالخلفة من الأولى، رفض فكرة طلاق وداد. نقل نادر كلام أمه وأبيه الى زوجته مازحا وأنتظر ليرى ردّ فعلها. كان ذاك الأحتمال طبعا قد خطر لوداد. فقالت له متحدية، "لماذا لا تسأل العروس؟ أن قالت لك طلقها، طلقني يا أخي. أنا راضية بذلك." لكن نادر نسي الفكرة ولم يعد يذكرها.

هذه الأيام، لم تكن وداد الوحيدة التي كان يزخر نومها بالأحلام لكن نادر كان الوحيد الذي يشعر بصفاء السريرة. كان مطمئنا أن زواجه الثاني مبني على طريق الحق والعادلة الدينية ولا حاجة ان يكون قلبه مفعما بالخجل والشعور بالذنب تجاه وداد فالله الذي سمح له بالزواج لن

يتخلى عنه - هكذا حلل لنفسه بمنتهى البساطة.

طيلة تلك الليلة ساد صمت ثقيل بين الزوجين فكلاهما كان يتأمل المستقبل طافح الرأس بالأحتملات التي قد يأتي بها يوم غدّ. في الحقيقة كان نادر أيضا متوتر النفس وأعصابه معلثة بشعرة فلازال هناك ذات الشئ الغامض الذي يرن في أُذنيه ولا يستطيع شرحه حول مشروع الزواج بأكمله. فمنذ أخليا حجرتهما الكبيرة للعروس وأرتحلا الى هذه الحجرة الجانبية الصغيرة، في أعماق نفسه صار نادر قانعا بأن فكرة زواجه كلها كانت لوداد ولكنه لم يفهم السبب، فمثلا لم يلاحظها تغير علنا أو تعارض كأي امرأة يتزوج عليها زوجها. أحيان كان يظن أنها مسرورة من زواجه. فأذا ابدى شكّا أمامها لأمتحانها، أنطلق لسانها بالمدح والأطراء على عروسه الجديدة وأنها مسرورة له وتتمنى له الرفاء والبنين. كان مثل هذا الردّ يقلقه لسبب ما لازال يجهله وأذا فكر فيه مطولا أعطاه صداع فضيع، لذلك كان أي أخذ وردّ بالكلام بينهما حول العرس، مهما قصر، من المحتمل أن يؤدي الى مشادة ونقاش حاد كما حدث مرارا. أحيانا أنتهى ذلك بشجار وتبادل الشتائم والتهم وهو يشعر بما يشبه الأنتقام لما كان يذكّرها من هو السبب أساس الأول في فكرة زواجه للمرة الثانية.

في تلك الليلة الأخيرة الباقية لهما بمفردهما، أثر كلاهما الألتزام بالسكوت لكي يستريح للقاء غد الذي سيكون عامراً بأحداث العرس. في واقع الأمر كان نوم الزوجين متقطعا فكلاهما كان مشغول الخاطر يفكر بما سيحدثه قدوم امرأة ثانية الى البيت من تغيرات في حياتهما اليومية. أمضت وداد أغلب ساعات الظلمة صاحية تحدق عيناها في عتمة السقف ففي مخّها كانت تعصف دوامة من الأفكار المتشعبة. كلما بدت لها خاطرة لم تمكث طويلا في ذهنها حتى وجدت لها نقيضا فأصابها الصداع لكثرة لقلقت الأفكار في رأسها المضطرب وهي بأنتظار شروخ الفجر بفارغ الصبر.

عندما دخل بصيص خافت من الضوء ينسرب من خلف شقوق أباجور الشباك المسدل وصارت عيناها تميزان الأشياء من حولها، قررت وداد أنه قد آن الآوان لتنهض وتبدأ نهارها. بحذر شديد رفعت اللحاف عنها جاهدة أن لا تصدر حركاتها الحذرة صوتا ينبه نادر. ولبضعة ثواني بقية جالسة على حافة السرير وهي ترتكي على راحتيّ يدّيها وكأنها تتمطى وتتأهب للنهوض. فجأة خلى رأسها من وشوشة الأفكار بينما سرحت عيناها بكسل تجوبان سقف وجدران الحجرة الخالية والمطلية أزرق رمادي وكأنها في محاولة فاشلة لإبطأ بداية يومها. وعندما حطّ باصراها على كوم ملابس زوجها حيثما تركها على بلاط الغرفة قبل أن ينام، أنفجر فوها عن أبتسامة رقيقة وفي رأسها تمتم الصوت الصغير، "كل شئ سيتغير اليوم! كله نهار واحد فقط...."

كانت وداد ترتدي قميص نوم من الساتان الأزرق يكشف عن ذراعيها وعن عنقها الأجيد وكانت قَصّة شعرها الأسود الناعم ولادية قصيرة لاتغطي أُذنيها بالكامل. وأخيرا كان لابد لوداد من النهوض فأنتصبت واقفة. بدت أطول مما كان متوقعا فقد دنى طولها من المائة وسبعين سنتمتر. تناولت روبها الأزرق عن طرف السرير وأرتدته بهدؤ ثم دست قدميها في شبشب أخضر على شكل الحذاء. في الضوء الطبيعي المتسرب من النافذة المقابلة، بدت وداد امرأة عادية ذو وجه مستطيل، وسيمٌ أكثر من أن يكون جميلٌ ومائل الى سمرة ناعمة. أما عيناها اللوزيتان فقد كانتا بلون العسل الصافي ورموش اجفانهما سوداء من أثر الكحل تحت حاجبين كثيفين على جبين عالي. كانت وداد رشيقة لطيفة القوام ممشوقة الطول، خفيفة الردفين ثقيلة الثديين، في الرابعة والثلاثون من العمر. منذو أيام صباها، كانت وداد حساسة جدا تجاه شكلها ولباسها تبذل جهدا زائد لتبدو أنيقة في هندمها العملي، إلا أنها فيما ندر أرتدت الفساتين أو أستعملت المساحيق على وجهها او غندرت شفتيها او أضافر يديها بالأحمر.

لاحظ نادر أنه في الأشهر الأخيرة قد جدّ إنقلاب فُجأي وجذري في شخصية زوجته. لم

تعد وداد تلك المرأة الخجولة المستسلمة التي حينما تكون في جمعة من الناس، خصوصا بنات جنسها، لا ترسي عيناها على وجه لشدة ارتباكها. في السابق كان تصرفها هادئ وأحيانا بطئ وظلت كل تلك الإحاسيس التي تفجرت في داخلها يوما ما وهي صبية، نائمة في دهاليز النسيان ولم يكن للذاكرة حاجة ان توقظها. لذلك كانت تكره تجّمع النسوة وتفضل البقاء في المحل بينما كان نادر يخرج منه لاي سبب تافه. أعتاد الزوج أن يتصرف بحرية وقلما حسب لزوجته حساب ان غاب او حضر فحسده أصحابه المتزوجون على حسن حظه. كثيرا ما سافر نادر الى دمشق او عمّان او بيروت ليمتع نفسه فيغيب كما حليّ له فلا تسأله وداد مع من ذهبت أو ماذا فعلت؟ كان نادر سعيد بوضع زوجته الأستسلامي الذي عمل لصالحه وستر خطاياه وذنوبه.

غير أن ثقة زوجته الآن بدت متزايده لدرجة أنها صارت لاتتردد فيما تقول. فهي تسأل وتحساب ولها أراء ووجهة نظر بكل شئ، خصوصا ذاك الذي يخص عالمها، وهو البيت والدكان، مصدر رزقهما. خارج محيطها بدى غالبا وكأن لم يكن لها مصلحة بما تتقاتل الناس من أجله وبما يفعله العالم بنفسه.

في الفترة الأولى من زواجهما لم تكن وداد تنام قلقا فحسب بل قلّما كانت تحلم. منذ بداية العيش في ظل كنف نادر تعلمت أن أصعب شئ سيكون هو ان تحيا لتكون امرأة يضاجها رجل ولشدة كرهها لذلك الواقع الموهين، جفاها النوم وهجرتها الأحلام وتقلص العالم من حولها الى جدران منزلها. لمدة سبعة أشهر تقريبا من بعد زواجها ظلت وداد ساهدة ليالي كثيرة وطويلة تضرب رياح التعاسة في أرجائها. بعدما يأخذ زوجها وطره منها، كانت وداد تجلس وحدها في صالة بيتها تسهر لساعة متأخرة من الليل على ضؤ النوّاصة الباهت وهي على يقين بأنها ستعيش وحيدة في هذا العالم الضيق الذي يكاد أن يخنقها وتشعر أن الجدران تتحرك صوبها لتسحقها. كان أحيانا يغالبها النعاس وهي جالسة غير أنها بأصرار حيوان راقد ليجتر طعامه، كانت ترفض الذهاب الى سريرها خوفا من أن يلمسها زوجها ثانيةً. في ما يشبه الظلام كانت تنتحب حتى الصباح ثم تظهر على مائدة الأفطار وقد تضخمت عيناها لكثرة الكباء. وخلال النهار وهي وحدها بالبيت كانت وداد تغني أغاني حزينة أو تنوح وتزداد حزنا وتشدد في كره الحياة يوما بعد يوم. لم تعد تعرف كي تضحك وتبتسم وكأنها لم تعرف السعادة في حياتها ابدا. لمثابرة أمها بنصحها، صارت وداد تقنع نفسها بأن عليها أن تتقبل الأمرالواقع فهذا هو الوضع الطبيعي لكل أنسانة وأن عليها الصبر. تدريجا صارت تبدو لأمها وكأنهاعلى أستعداد لتحمل نادر والتعايش معه كزوجة حتى النهاية. طوال أشهر التأمل تلك لم تخرج وداد من البيت الى الشارع إلاّ لضرورة قسوى وبدت وكأنها سجينة تخاف من كل شئ وبالأخص غضب زوجها منها. لكن بالرغم من ضعفها الظاهر وخنوعها امام العواصف النفسية التي كانت تعصف بها يوميا، في حضور نادر كانت وداد في صميمها امرأة شجاعة لا تشك في نفسها وأنما كانت شكوكها بما يفكره الناس بها.

بعدما تعلمت وداد كيف تقطع صلتها بالماضي وبالأمل، صارت تنام نوما اعتياديا إلاّ في ليالي البرد القارصة عندما يكون نادر بالسرير الى جانبها وقد أستحوذ على الفرشة والغطاء ليتدفى. كانت رياح الشتاء العاتية، مثل رياح تعاستها، تعصف بأرجاء البيت لدرجة أنها كانت تتخيل أنها بالكاد ستصمد ممدة بلا غطاء. كانت وداد تمتعض من الأقتراب من نادر لتدفأ به لدرجة أنها كانت تفضل أن تبقى صاحية لكي لا تموت متجدةً من البرد، كما كانت تتوهم. في تلك السنون الأولى من زواجها كانت وداد تؤمن أنه لم يكن عندها شئ يستحق ان تعيش من أجله وباستطاعة الموت ان يأتيها متى شاء. فيما عدى حبها لأبنها بقي ذاك تقريبا حال وداد لمدة تسعة سنوات وفجأة في هذه الأشهر الأخيرة عاودتها الأماني التي كانت تمر برأسها في أيام الصبا. صارت لياليها زاخرة بأحلام بعضها يؤثر فيّها ويبقى محفورا في ذاكرتها وبعضها يترك أثرا

محببا إلاّ في ما ندر. الآن، هاهي تسعى وراء الحياة ولم يعد فيها شيئا تراه تافها أو أمرا ينبغي أن تتجاوزه. بعد كل تلك السنون والتفكير الطويل، صار يزعجها أنها كانت تحسد نادر على صفاء سريرته بالرغم مما يقترفه من أثام وفواحش بحقها. لقد غدى إيمان وداد بحقها بالعيش كامرأة مستقلة قويا وراسخا، معزولا عما ترغبه أمها لها يهبها قوة مسيطرة لتسعى جاهدة في طلب الحياة التي كانت من حقها. لقد أصبح للكون لون زهريا جميلا، مليئا بالأمال والطموحات. وأكثر من ذلك، لقد تذوقت وداد السعادة وكم كان مذاقها شهيا ولذيذا.

٢

قبل أن تغادر حجرة النوم، لاشعوريا خطّت وداد بخفّة على أطراف أصابع قدميها الى كوم ملابس زوجها ورفعتها عن الأرض، رتبتها ثم وضعتها على كرسي بجوار خزانة الفورمايكا البنّية ذات الثلاث ضلفات. بنفس خفة القدم ذهبت الى المزينة البضياء وأخذت المشط الى شعرها وسرحته الى الوراء عدة مرات على عجل ومن دون أن تتوانّى أو تفحص هندامها في المرآة فقد أُخذ تفكيرها على غرّة بألاف المشاريع التي أعدتها ليوم السبت ذاك. التقطت وداد مفتاحا عن ظهر المزينة ثم القت نظرة أخيرة صوب السرير لتطمئن أن زوجها لم يفق على حركتها، فبدى لها أنه نائم. لبضع من الثانية أحست بشعور جميل من الحب صوبه تبعه مباشرة طوفان من الشعور بالغيرة يتحرك ويمغص في أمعائها كالحية السامة. أهتز كل جسدها بألم ومرارة. لكن هذا الأحساس الغريب لم يدم أكثر من الثانية ثم أختفى ولم يترك في حلقها طعما أو مرارة.

سارت وداد البضعة خطوات التي فصلتها عن الباب ثم فتحته بهدؤ كي لا يسمع زوجها صرير المفصلات وولجت من حجرة النوم الى ممر يؤدي الى الصالة التى كانت لاتزال في ظلمة دامسة. ردت وداد الباب خلف ظهرها وأغلقته جيد بحذر. أستدارت فكان أمامها هواء جاف أسود يخفي فجرا لا يُرى بعد في الممر. تلمست وداد مفتاح الكهرباء على الحائط بالقرب منها وكبسته. ومض قضيب النيون عدة مرات قبل أن يندلع الضؤ ويكشف الفوضى التي أحتوتها جدران البيت المطلية أزرق رمادي وليس معلقٌ عليها شئ عدى الستائر والبرادي. كان كل شئ لايزال كما تركه الضيوف بعد مرح وصخب الليلة الماضية. تنهدت ربة البيت بعمق من ثقل مهمة أعادت ترتيبه. خطّت الى النوافذ وسحبت البرادي ثم رفعت الأباجورات فأندلع نور الفجر الخافت من النافذة الواسعة في الصالة فأطفأت ضؤ الكهرباء.

كان في رأس وداد أوليات ومُخطط لما ستنجزه قبل أن يفيق زوجها. ذهبت مباشرة الى حجرة نوم أبنها الوحيد، علي. فتحت الباب بهدؤ. في خصلة الضؤ المنسرب من الصالة، وجدت الطفل الذي لتوه قد بلغ الخامسة من العمر، لا زال يغط في نوم عميق. قبل أن ترفع الستار عن شباك حجرته، لبضعة ثواني وقفت في مكانها بسكوت وهي تلقي على أبنها نظرة رؤوم طويلة تحسها تحت الضلوع، مليئة بالحب الأمومي. أنتعش صدرها لرؤية وحيدها ثم سحبت الستارة والأباجور لتضئ الحجرة. خرجت وأغلقت بابها بهدؤ كما دخلته.

سارت وداد على توئدة وكأنها تهدء نفسها الى الباب الثالث. فتحت غاله بالمفتاح الذي كان بيدها ثم دخلت الحجرة. وجدتها مليئة بأنوار الصباح تدخل بقوة من النافذة فهي لم تغلق أباجورها ولا أرخت ستائرها آبان الليل لتهويها. فجأة صارت وداد في حالة هياج نفسي شديد وتسارعت دقات فؤادها وأحست برطوبة في مقلتيها وغصة في حلقها وكان هناك ألم خفيف وكأنه فراشة طائرة ترفرف بين أوجاع صدرها بلذة. كانت ضربات قلبها قوية وفي تتابع وانتظام مع الضربات الاخرى التي تحت جدار بطنها، داخل أحشاءها، حتى تحول طيف صواري، ضَرّتها الشابة الجميلة، الى شئ محسوس رأت صورته من خلال أحاسيسها كأنما تراها أمامها. تفجر

بركانا من العواطف المعقدة والمتشابكة في جسد وداد فزلزلها من قمة رأسها الى أخماص قدميها. هاهو ذاك الضجيج البارد اللذيذ الذي تعرفت عليه منذ بضعة أشهر قد جاء. ولكن هذا الصباح كان أكثر حدة ويرافقه بعض الألم. لقد ضربها ضجيج أفكارها بشدة أقشعر لها عمودها الفقري في أهتزاز غير منتظم يطوف في أرجاء جمجمة رأسها بصوت مكتوم. أخذ أنفجار الإحاسيس المتناقضة ذاك وداد على غُرّة فأركت جسمها الى الحائط لتستعيد توازنها. من أعماق الظلمة شاهدت وداد خيال المرأة التي ستقلب كل شئ في حياتها الرتيبة. أحست الشبح كأنه شئ ملموس يحتل حيزا بعناية الصلب الشفاف ولكن لم يخيفها بل أبتسمت له. هطلت الدموع الرقاقة التي تكورت في قُرن أجفانهاعلى خديها فمسحتهما حالا بضاهر كفها وهي تحدّر نفسها، "أعصابك ياوداد! ليس الآن في الوقت متسع للبكاء. من بكره معك العمر كله."

بعدما أستعادت توازنها النفسي جالت عيناها في أطراف الحجرة الفسيحة فوجدت كل شئ كما كانت تتوقع. فتحت الخزانة الزان ذات الأربع ضُرف وتفقدت ملابس وفساتين العروس فكانت مرتبة ومعلقة كما تركتها. لبضعة ثواني درست طاقم أثاث النوم الجديد المصنوع من خشب الزان والذي جُهز خصيصا من أجل العروس وعلى ذوقها من أثمن محلات شارع مكّة في عمّان. تأكدت من أن الحجرة أنيقة ونضيفة وجاهزة لأستقبال صاحبتها ذاك المساء. مرت وداد بيدها على شرشف السرير الأبيض والمنجد برقع ملونة خُيطت بمهارة على شكل نجمة خماسية. لما هدأت نبضات قلبها همست لنفسها راضية، "الحمد لله لم يدخل احد من الضيوف الغرفة ليلة أمس. سأبقيها مغلقة بالمفتاح حتى تفتحها العروس بنفسها الليلة."

بعد أن أغلقت النافذة وأسدلت الستارة والشيش، خرجت وداد من الحجرة ثم سكرت بابها بالمفتاح ووضعته في جيب روبها وهي تذكر نفسها، "من الأفضل أن أخبأهُ في مكان لائذ كي لا يستدل عليه أحد حتى تستلمه صاحبته الليلة...."

دخلت وداد الحمام، غسلت وتوضأت ثم صلت الفجر حاضر. قبل أن تبدأ في ترتيب بيتها غيّرت الى فستان شغل البيت الطويل الفضفاض وربطت وشاح أزرق حول رأسها. في فوضى المطبخ غلّت فنجان قهوة نسكافيه كبير بالميكرويف ثم خرجت به الى البرندة. أشعلت سيجارة وجلست تسند ظهرها على الكرسي البلاستك الأبيض في الشرفة لتستمتع بنسمات الصبح الرطبة وكانت تبدو قوية وغنية النفس كما لم تكن في سابق عهدها. هبت عليها نسمة صباحية خفيفة آتية معها ببعض البرودة الخفيفة ممزوجة برائحة الياسمين. صارت وداد تحتسي قهوتها بهدؤ في رطوبة الصبح الجديد تراقب الحياة تدب من جديد في شارع بيتها.

عندما أفاق نادر في الساعة التاسعة، كانت وداد، في الأربعة ساعات المنصرمة، قد رتبت البيت وأعادة اليه نظامه السابق قبل أن تنظفه وتمسح بلاطه وتعده لأستقبال العروس والبشر من الأقارب والأصحاب الذين سيصحبونها تلك الليلة.

وقع منزل نادر ووداد شرق المدنية في حيّ السيّاف الراقي الجديد. أدت ضروف الهلال الخصيب التارخية الى ان تنمو وتزدهر أربد بموجات متتابعة من المهاجرين داخل أراضيها الزراعية والقرى المحيطة. مسورة بجدار حجري منخفض، كانت حديقة دار وداد ونادر مزروعة بأشجار الزيتون وبعض شجيرات الورد الجّوري وتعرش على المدخل دالية عنب. تبع البيت - المبني من الحجر الأبيض - في هندسته الطراز المعتاد في بناء منازل بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط. كانت وداد حامل بعلي حينما رحلت العائلة الى منزلهم هذا قبل ستة أعوام. قبل ذلك التاريخ سكن نادر وزوجته في الشقة التي استأجراها وتزوجا بها في حيّ جرن الغزال الى جنوب المدينة. لما وهبّ أبو نادر أبنه قطعة الأرض، مباشرة أخذ نادر قرضا من البنك الأهلي وبدأ ببناء دارهم هذه ليرتاحوا من دفع الأجار. تكّون البيت من ثلاث غرف نوم وصالة مع صالون وسفرة وجميع المنافع التابعة لها. منذ ثبت مشروع زواج نادر الجديد، قرر الزوجان

- فيما لو دعّت الحاجة - أن في أرض الحديقة متسع ليضيفا حجرة نوم رابعة كي لا يضيق المنزل عليهم. لكن الفكرة الآن ‘وُضعت على الرف’ كما أتفقا فتكاليف العرس باهضة والبيت كما هو الآن فيه متسع لهم.

قلقٌ ومتوجس بعض الشئ، جلس نادر في البرندة على مقعده البلاستكي الأبيض المعتاد مستقيما ومسنداً ظهره ويدخن سيجارة. بالرغم من أن عيني الأب كانتا تتابعان لعب أبنه، إلا أن عقله كان سارحا بما سيحدث هذا المسأء في قاعة البتراء ويتحسب للضجيج العالي الذي سيملئ رأسه بالصداع. في منأى عما يشغل بال أبيه، جلس علي على البلاط يسوق سيارته الصغيرة أمامه ويتصور سرعتها وصوت محركها وهو يقول بجدية، "طووووط طووووط... فروووم فروووم. طووووط طووووط... فروووم فروووم...."

كان نادر مثل أبنه، لازال في دشداشته البيضاء في أنتظار أن تحضر وداد لهما الفطور. كان الرجل في الأربعين من عمره وبالرغم من أن بوادر كرشاً بدأ يظهر حول وسطه، إلا أنه لازال قوي ورياضي البُنية، شَعُور البدن في مثل طول زوجته. منذ أولى أيام خطوبة أبنتها، بفطنة وخبرة في عقلية ذكور العرب، أنتبهت أم وداد لتلك الحقيقة، ومباشرة لفتت أنتباه أبنتها لها ثم نبهتها أن لا تلبس الأحذية ذات الكعب العالي وهي برفقته حرسا على كبرياء الرجل أن بدت خطيبته أطول منه امام الناس. طيلة فترة زواجها حافظت وداد على تلك النصيحة ففي الواقع لم تكن من طبيعتها مغرمة بالأحذية العالية. بدأ الصلع في مطلع فروة رأس نادر السوداء وقد بدأ بعض الشيب يغزو مفرقه. كان وجهه أبيض ووسيم ذو ذقن مربع وأنفٌ ساميٌ ضخم وعينان ذو زرقة رمادية عمّورية. مثل رجال العرب، أقتنى نادر شنبا كثيفا كاد أن يخفى شفته العليا، فأذا نفخ دخان سيجارته ظهر وكأن شاربه يحترق.

منذ أسبوع توقفت حركة كل شئ طبيعي في البيت الذي صارت تنفذ في أرجائه رائحة الفل والأقحوان والخزامة من قواريرها أمام الباب الرئيسي وعلى حافة البرندة. اولا عزّلت وداد الغرف الواحدة تلو الأخرى للطريش ليبيض الجدران والسقوف بلون رمادي أزرق فاتح ذلك عدى الأبواب التي لم تبهت دهاناتها البيضاء بعد. لما خرج عمال التبيض، دخل بعدهم مباشرة النجار الذي جاء من عمّان برفقة أثات غرفة العروس وأمضى نهارا كاملا وهو يجمّع ويبني خزائن الزان والسرير الخشبي ذو الحجم الملوكي. ويوم أول أمس أخيرا جاء الجنائني المصري الذي عزّل ونظف الحديقة ثم غرس أشجار الورود والياسمين والزنبق بجميع أصنافه. وفي أصص الفخار الكائنة في الممشى لتستقبل الساكنة الجديدة زرع الصبار والنباتات الصحروية الأخرى. البارحة آني الكهربائي وعلق أحبال الأنوار الملونة على معبر الدار.

تناولت العائلة الفطور بصمت مقصود فقد بقي نادر مستفردا بأفكاره الخاصة. ولولا إصرار وداد على أبنها، علي، الذي كان مشغول بأمر سيارته، ليأكل فطوره ويشرب حليبه لما تكلم أحد. لاحظ الرجل أن زوجته معتدلة المزاج ذلك الصباح بالنسة للأصباح التي مضت أضف الى هذا أنها بدت أثناء الفطور أكثر حيوية عن ذي قبل. بعدما رفعت وداد مائدة الطعام، بقي نادر في مكانه بالبرنده وأمامه كأس شاي والسيجارة كعادتها بيده. أما وداد فتخلصت من ملابس الشغل المنزلية وأرتدت بنطلون جينز وبلوزة بيضاء فضفاضة ولم تستمعل المساحيق على وجهها حتى الكحل الذي نادراً ماخلت أهدابها منه لم تستعمله هذا الصباح. غيرت لأبنها وأعدت أغراضه في حقيبة صغيرة. وكي تشعر الولد بأهمية اليوم طلبت منه أن يذهب الى حجرته ويختارّ اللُعب التي سيأخذها معه الى بيت جده ويضعها في صندوق الكرتون ولكن الطفل أصر أن يأحذ أيضا دراجته معه. عندما ودع علي أباه، قبّل نادر وجنتي أبنه ثم وضع في جيبه ورقة الخمسة دنانير وقال له، "هذا مصروفك، لا تضيعه."

شعرت وداد بحاسيسة من فعلة زوجها فعاتبته قائلة، تدافع عن كرم وحب أهلها لعلي، "لن

يموت أبنك من الجوع في دار جده."

بقي نادر صامتا وتجنبا للمزيد من الأخذ والردّ في الكلام، عجّلت وداد أبنها في جمع العابه وساعدته في وضعها بصندوق الكرتون. حملته هو وحقيبته الى السيارة، بينما تبعهما نادر يحمل الدراجة وصندوق الالعاب التي وضعها في صندوق السيارة. بعدما اودع نادر أبنه على الكرسي الخلفي وربط حزام السيارة حوله وهو يداعبه ويلاعبه، فتح باب الكراج لتخرج السيارة التي كانت تسوقها وداد. لوح نادر لأبنه وقالت وداد عندما خرجت بالسيارة الى الشارع، "لن أغب طويلا. مسافة الطريق ورجعة." ثم أقفت مسرعة الى منزل أهلها في وسط البلد.

كان الأتفاق أن يبقى علي عند جدته (أم وداد) الى نهار الغد حرصا عليه من زحمة العرس. رفضت أم وداد وأبو وداد حضور الحفل وقد أنبا أبنتهما بشدة لموافقتها على أدخال ضَرّة عليها لتشاركها زوجها وبيتها. ولما أكتشفت أم وداد أن وداد لم توافق فقط على زواج نادر بل كانت سعيدة لذلك، جّن جنونها على أبنتها وغضبت منها ووصفتها بالغبية ووفي النهاية ستكون هي الخاسرة. غير أن وداد تصرفت وكأنها لم تسمع نصيحة أمها. في الحقيقة لم تفهم أم وداد عقلية أبنتها منذ كانت طفلة.

عادت وداد وحدها الى البيت وقد صارت الشمس في السماء تتقد ولكن الحرّ الشديد لم يكن قد بدأ بعد. ولما وجدت البرندة مزدحمة بالزوار وبحركتهم وحديثهم فجأة بدأت تشعر بحرارة الشمس وتكور العرق على جبينها تعبا مسبقا لهول مهمة أعادة ترتيب البيت من كثرة البشر وصياح الأطفال الذين كانوا برفقة أمهاتهم. لم تكن وداد تتوقع مثل هذا العدد الكبير من النسوة وفي طيها أتهمت حماتها التي لابد أنها دعتهن للسفر معها الى عمّان لأحضار العروس ليكن كتلة ضدها. عدى عن عدد من السافرات الصبايا اللواتي لم يتزوجن بعد أو بعض المتزوجات حديثا، بقية النسوة ارتدت - وأغلبهن محجبات - ملابسهن العادية لئن ملابس حفل العرس كانت في الشتنات جاهزة لأرتدائها بعد أن ينتهين من التزين في الصالون الذي حجزته وداد في عمّان قبل شهر حسب توصية العروس. مثل وداد خلت وجوه جميع النسوة من المساحيق.

أبان غيابها، كان سامر، أخو نادر ألأصغر وصديقه الحميم، قد وصل اولا هو ومها، زوجته التي أختارتها له أمه. كانت مها، التي كان على حضنها طفل رضيع هو أبنها الرابع، هادئة الطباع ومطيعة لزوجها جدا. وبرغم طرواة سنها كانت زوجة سامر متدينة وحتى حينئذ كانت قد سارت على درب الحجر الأسود مرتين وهاهي تخطط للثالثة أذا ما سمح لها سامر بالسفر. بعد دقائق من وصولهما لحقت بهما أمه وبناتها الثلاثة ومعهن نسوة وصبايا من قريباتهن في ثلاث سيارات. كان سامر ،على عكس أخيه، رجل ناضج ممتلئ وشاحب اللون طويلا ضخم الجثة كثيف الشعر، فظّ الطبع، تبدو عيناه صغيرتان جدا من خلف زجاج النظارة الطبية. وحسب تموض الشباب في تلك الأيام كان التشذيب والعناية اللذين أدخلهما على لحيته الفاحمة السواد والمقصوصة قصيرا واضحا. في بنصر يده اليسرى وضع سامر خاتم فضّي وأرتدى قميص أزرق ضيق على كرشه الكبير وبنطلون كاكي وحذاء ذا رقبة به مهماز ويحمل تحت جاكته مسدسا.

بينما كانت النسوة في حديث مُهم، يتبادلن الأراء بجدّ، يتفقن ثم يتخالفن، جلس نادر وأخوه يحاولان فهم ما كن يقلنه لهما فمعضم كلامهن كان تعليمات موجه للعريس. خلال ذاك الوقت كانت وداد تعدّ ثياب العريس في غرفة نومها بينما جلست حماتها على حافة السرير تراقبها بحرص شديد. كانت الحماة نحيفة الجسم ومحجبة لا يبدو منها عدى وجهها المجعد فبدت طاعنة في السّن بالمقارنة بكنتها وهذا يرجع الى العروق الزوقاء البارزة في منطقة الحواجب وفي أجزاء أخرى من فخذيها وساقيها لا تتضح معالمها. طوال فترة جلوسها لم تحرك المرأة رأسها رغم

الغيظ الذي كان يغلي فيه كي لا تبعد ناظريها عما كانت تفعله وداد وتتدخل بكل شئ. كانت ضاغنة تريدّ وداد أن تحس بأن هي، الحماة، صاحبة الكلمة الأخيرة بكل ما يجري وسيصير في عرس أبنها، تماما كما كان الحال في زواجه الأول. غير أن وداد منذ البداية بذكائها أثرت الصمت تحاول قدر الأمكان أن لا تبدو عقيقة بحق حميها وزجته وأبدت لهما الأحترام لتتجنب سلاطة لسان أم نادر. جهزت وداد الملابس الداخلية البيضاء التي كان نادر سيلبسها ذاك المساء ثم أخرجت بدلت الجوخ الرمادية الجديدة وقميص من الحرير الأبيض وربطة عنق حريرية ذهبية اللون فرنسية المنشأ ثم رتبتها جميعا بعناية شديدة على السرير.

"أين الحذاء والجوارب؟" سألتها حماتها مكيودة القلب تود لو أنها هي التي كانت تعد جهاز أبنها. لازلت أم نادر غاضبة منه لأنه لم يسمع كلامها ويطلق امرأته قبل أن يدخل على عروسه الجديدة. كانت أم نادر ضرب المثل الذي يحتذى بين الأمهات في مجتمع أربد الضيق، فقد أتسمت بالتشدد في مشاعر الأمومة وتعودت على عبارات المديح من زوجها وابنائها وعلى طاعتهم لها حتى أنه لم يكن أحد في بيتها بمعزل عن أرادتها. أحاطت أم نادر عائلتها بسياج متين من التعصب أبقت بداخله أبنيها، نادر وسامر، وبناتها الثلاثة وأصهرها وأحفادها حتى أصبحوا شبكة معقدة من القرابة. لم يفلت من هذا الحصار الإ وداد ولامت الحماة في ذلك أبنها لتساهله مع زوجته.

لتغيضها أكثر، لم تجب وداد على سؤالها مباشرة وأستمرت تعد ملابس زوجها بهدؤ. كانت قد عاهدت نفسها ‘مهما حاولت امرأة عمي أن تستفزني، فلن أرد عليها حتى يمرّ هذا اليوم علينا بخير’. ورغم ذلك تغلبت عليها طبيعة العرب في إظهار الأحترام والود لكبير السّن وبعد فاصل ليس بالقصير أجابت وداد حماتها وهي تنحني وتخرج علبة كرتون بيضاء من تحت السرير، "كل شئ جاهز، يا امرأة عمي. هذا هو الحذاء الأسود الجديد والجوارب معه."

بعدما أنهت أعداد ملابس زوجها، صقّي الوقت لوداد لتعد ما ستلبسه من ثياب ذاك المساء ثم بلطف وعناية طوتها ووضعتها في شنتة واسعة. تركت نادر وقريباته يتشاورن بأمر العرس ودخلت هي الحمام لتستحم. آبان غياب وداد في الحمام ذهبت أم نادر ومعها كبرى بناتها تتفقدان البيت وتتجسسان على خزائن وداد وملابسها وقد صدمن لما وجدن غرفة العروس مقفله.

كانت الساعة تقارب الواحدة ظهرا عندما أعلنت وداد، "نصلي الظهر ثم نتسهل!"

تمنت الحماة لو أن وداد كانت غير موجدة وأخذت عيناها تجوب إرجاء الصالة الحافلة بالزوار وبحديثهم بإيقاع يشير إلى الأحتقار الكامل لوداد. بعد هنيهة تحركت شفتاها بتمتة غير مسموعة ثم قالت تخالف راي كنتها، "ها قد وصلت سيارات الأجرة. يجب أن نتيسر حالا. . ."

لكن أحد النسوة قالت، توافق مع وداد، وهي تنظر من النافذة وترى الحر يرهج في الشارع والشمس كالحريق متوقفة في قمة السماء، "والله أنا من رأي أم علي. كل مسافة الطريق ساعة ونصف بالكثير. لا زال أمامنا متسع من الوقت. ثم لو وصلنا بدري ما الذي سنفعله في عمّان؟ أهل العروس يتوقعونا بعد الساعة الرابعة عصرا لنأخذ العروس الى الصالون. . ."

بقية النسوة كنّ من نفس الرأي وقالت أحداهن وكأنها تطمئن أم نادر، "التكسيات مستأجرات باليوم وليس بالساعة."

أثار قرب السفر حالة ترقب شديد في المنزل وكان هناك لبلبة كبيرة. ولما دنى وقت المغادرة قام ضجيج عظيم. خرجت النسوة الى الشارع كلٌ تحمل حقيبة ملابسها فلفحتهن نسمة هواء نارية جعلتهن يسرعن الى ركوب السيارات المكيفة ليكن بفاردة العرس. لم تخرج وداد من البيت إلا بعدما تأكدت عدة مرات من أن نادر وسامر كانا واثقين من أمر ترتيبات المساء وأن عليهما الحضور الى قاعة البتراء تمام الساعة الثامنة والنصف مساءً. طبعا كانت ام نادر شاهدة على كل شئ، تعيد كل ماكانت تسمعه من وداد حرصا على سلطتها وأنها أم العريس. معا ذكرتا

العريس أن يذهب الى الحلاق قبل أن يستحم. شددت وداد على سامر أن لا ينسي الحلاق فنادر كسول وقد لا يذهب أن لم يأخذه أحد. وأخيرا لما ضجّ سامر من كثرة الأرشادات قال، وهو ينظف زجاج نظارته الطبية بمنديل وعندما وضعهما على عينيه بدا واضحا انه شقيق نادر، "يجب أن تذهبن الآن وإلا تأخرتن عن موعدكن عند صالون التجميل في عمّان."

لما خرجت وداد وخلفها حماتها وصل وفد أخر من أصدقاء نادر ليكونوا معه حتى موعد زفته. والشمس في قمة السماء تضرب بقوة في ظهيرة آب، على مدى العشرين دقيقة التي سبقت سفر النساء الى عمّان، حدث ارتباك وكرب وركض هنا وهناك في حرّ وغبار الشارع العام امام المنزل. على مرئ الجيران أمتلئت السيارات بالنسوة والبنات المتراصة وقد أصابهن الشحوب من جراء الحرّ الشديد والقلق على تفاصيل الحفل والمشاركة في موكب العرس المهيب المكون من اربعة سيارات خاصة وأربعة أجرة في طليعتهن كانت سيارة أبو نادر المرسيدس البيضاء مزينة بباقات الورود والأشرطة البيضاء المعقودة على أشكال الزهور حسب توصيات العروس. عندما أنطلق الموكب الى عمّان قامت ضجة عظيمة من الفرح في الشارع وأرتفع صياح زوامير السيارات وزلاغيط وغناء النسوة والأولاد والبنات الصغار يتراكضون في كل أتجاه وهم يصيحون.

٣

وهكذا صار. في تمام الساعة الثامنة من مساء أخر يوم سبت من شهر آب لعام ألفين، وصل موكب سيارات العرس من عمّان الى أربد. بين تصفيق وزلغطة قريبات العريس وعلى أنغام فرقة بيروت الغنائية العالية الأيقاع، قاد أبو العروس أبنته، صواري، من المرسديس البيضاء، سيارة حميها أبي نادر، والمزينة بالورود البيضاء الى داخل قاعة البتراء على شارع أيدون الصاخب بالمتنزهين. وحسب الأعراف المحافظ عليها في تلك الأيام كان مصور الفيدو يمشي أمام العروس وهي مغطاة الوجه وقد لبست فوق تفصيلتها وطرحتها البيضاء - رمزً البكارة - عباءة سوداء المفروض أنها لأبيها. ومنذ هذه اللحظة المسجلة بالصورة والفيدو، أوصل الأب أبنته لأهل زوجها حسب المعاير العتيقة لتعيش تحت سقف ديارهم ويكون جسدها مُلك لزوجها متى شاء. وبهذا يكون الأب قد مثّل دوره في مسرحية حفلات الأعراس حسبما كان دارجا آنذاك. في حضور حشد من المدعوين، من ذكور وأناث - أغلبهم من عشيرة العريس - وأمام شدّة أستغرابهم مشت وداد جنب الى جنب مع مصور الفيدو الى الوراء تقود العروس وأبيها صوب اللوج ومن خلفهما سارت عائلة العروس، أمها وأخواتها، وقد غلبتهن العاطفة فكانت دموعهن على خدودهن وهن يتبعنهما صامتات ليسلموا أبنتهم لأهل عريسها.

مثلها في ذلك مثل أية زوجة يتزوج عليها زوجها، كان من المفروض أن لا تحضر وداد حفل عرس زوجها على امرأة ثانية وأن يكون هذا اليوم أتعس أيام حياتها. توقع الكل أنها قد أُغلقت باب بيتها على نفسها ورفضت أن ترى أحدا. كان الطبيعي أن تكون الزوجة الأولى غاضبة جدا وحاقدة جدا ترفض أستقبال ضَرّتها التي تكرهها حتى الموت فهذا في طبيعة البشر. كان المتعارف عليه أنه إذا أجُبرت الزوجة الأولى على حضور حفل العرس إرضاءً لخاطر زوجها فلن تمكث عادة إلا قليلا وأن تكون حزينة لقسوة القدرعليها وهي تبكي لسؤ حظها. وعندما رأت الناس وداد توقعها الكل أن تكون جالسة مع صاحباتها - أمها وأخواتها - على أحدى الطولات النأية لمدة خمس دقائق لا أكثر بعد وصول العروس ثم يغادرن قبل أن يصل العريس.

لكن وداد لم تكن يوما امرأة عادية فهاهي تحطم كل الفرضيات والمعاير التي ضبطها المجتمع لتكيد كل عُزالها. كان واضحا للعيان أن وداد قد نصبّت نفسها عريفة على الحفل وكأن

العريس أخوها او أبنها وليس زوجها. لاحظت النسوة أنها بجدارة قد تغلبت على حماتها التي لم تستطع أن تتقدمها أمام العروس وأبيها. والغريب أكثر بدت فرحة وداد طبيعية ونابعة من أعماق فؤادها. كانت وداد منفعلة جداً ويبلل العرق وجهها المخضب. كانت تصيح وتهاهي وتزلغط وتشجع النسوة اللواتي صففن على الجنبين لاستقبال العروس، أن يصفقن بحرارة ويباركن لها وهي تقول وتردد بأعلى صوتها، "التي لا تسلم على النبي عينها تنقلع.... التي لا تسلم على النبي عينها تنقلع. . . "

ولما وصلت وداد بالعروس وأبيها الى اللوج كانت حماتها وبناتها قد سبقنها ليحجزن الدرج. غير أن وداد ظلت صامدة جنب الى جنب مع مصور الفيدو. كان اللوج مزين بالسجاد وشرائح مثنية من قماش الستان الثمين وأرضيته مفروشة بباقات الورود البيضاء وحبال أضواء الكهرباء الملونة. حاولت أم نادر جهادة تُعينها كبرى بناتها أن تحاشك وتدافع لتسبق وداد وتستلم يدً صواري من أبيها، غير أنها فشلت في ذلك لأن العروس بنفسها تعدت يدّ حماتها الممدوة صوبها وسلمت يدها لضَرّتها. بمنتهى اللطف رفعت وداد العبائة عن كتفيّ العروس وأعادتها للرجل قبل أن ينزل درجات المنصه، حاله كحال عائلته، منفعل بمزيج من العواطف. والدموع تلمع رقراقة في عينيه ذهب أبو صواري تلحقه زوجته وبقية عائلته وجلسوا الى أحدي الطولات كبقية المدعوين الغرباء. قبل أن تُجلس وداد العروس على عرشها وهي لتزال مغطاة الوجه رتبت تفصيلتها حول الكنبة وفردتها حولها. كان المُتعارف عليه آنذاك في شرق البحر الأبيض المتوسط هو أن تصل العروس الى قاع الحفل نصف ساعة على الأقل قبل وصول عريسها وتبقي مغطاة حتى يكشف هو عن وجهها. تجلّت صواري وهي تسند ظهرها الى مسند الكرسي ولم تبدو عليها، كما كان متوقع، ملامح الأنفعال والخجل بل بدت هادئة مثل أولائك الناس الذين تعودوا على ضبط أنفسهم في المواقف الصعبة.

ضدّ نصيحة أبيها يوم عُقد الكتاب، تسامحت صواري بكثير من بنود العقد كي لا يتعسر الأتفاق الذي تمّ قبل شهرين من تاريخ الزواج بين أهلها وأهل العريس. بحضور الشهود وقع نادر العقد أولا ثم عقبه أبو العروس على أساس أنه وكيلها بالرغم من أن صواري كانت تجلس الى جواره وكانت قد ناقشت في تفاصيله.

وسط الحرّ والزحام المهلك في قاعة البتراء، أختلطت أصوات فرقة الموسيقى العالية والغير مفهومة لشدة الجلبة بنداءات الحضور وبضجة الشارع والسيارات المزعجة يحملها الهواء الساخن والجاف الذي يدخل من النوافذ المشرعة. ولما أُغلقت الشبابيك وشُغلت المراوح الكهربائية التي تدلت من السقف مع ثريات الزجاج، لطُّف الجو قليل وخفت حدة الضجيج المزعج. أخذ الحضور مقاعدهم، أهل العريس الى يمين اللوج وأقارب العروس الى اليسار. لكن الفتيات كن في نفسية مرحة ولم تطل جلستهن قبل أن دخلن الحلبة تحت المنصة ليشاركن وداد وأخوات العريس الرقص وترتيد الأغاني الشعبية التي تغنيها فرقة بيروت. تقربا من الصبايا، كما النحل طائر صوب الرحيق، تقدم الشبان في خط مستقيم صوبهن ليتبادلوا معهن البهجة واللهو والغزل. بالرغم من أن أكثر النسوة كن محجبات، أرتدت قريبات العريس المتزوجات حليهن وملابسهن الثمينة التي بدا وميضها كانه فسفور براق تحت اضواء النيون الصاطعة من السقف والجدران البيضاء. والذهب يبرق على معاصمهن وأجيادهن، كانت الصبايا سافرات في فستاين جميلة تكشف عن صدورهن واذرعهن يرقصن ويدبكن حبل مودع مع الفتيان في بدلاتهم الجديدة. كانت الدبيكة، من ذكور وأناث، شديدي الشبه بهولاء الشباب الذين يحضرون مثل هذه الحفلات لقرب زفافهم وكانوا يشعرون بالملل الشديد لبعد ما هو في نظرهم أمد طويل لذلك اليوم الموعود.

لتكيد حماتها أكثر، كحّلت وداد عينيها وعلى غير عادتها لبست المكياج وأحمر الشفاة وتزينت بأسوار الذهب والحلي الثمينة والأقراط والعقود وأرتدت فستانا أحمر قاني جميل المظهر

أختارته خصيصا من المحل بعد مشورة صواري. عدى عن فستان شغل البيت الأسود ومريولة المدرسة، رغم غضب أمها وتشدد أبيها المتدين وتهديده لها بالضرب ومنعها من مغادرة البيت، منذ كانت فتاة مراهقة، إذا ما خرجت وداد من المنزل عادةً لبست بنطلون جينز أزرق وبلوزة فضفاضة فوقه. لما رجعت بنات بلاد الشام المسلمات للبس الجلباب والحجاب، قوامت وداد الموضة بشدة وأبقت قصة شعرها قصيرة وخرجت سراً عن أبيها سافرة وهي ترتدي البنطلون. إذا صدف وشاهدها أبوها أو فسدت له أحدى أختيها بأن وداد أطاحت بأمره وخرجت تلبس الكاوبوي، ضربها ضربا مبرحا ثم منعها من الذهاب الى المدرسة وحبسها في البيت مرات لشهر بأكمله لذلك لم تفلح وداد في تحيصلها الدراسي. وبعد أن رسبت في التوجيهي قعدت بالبيت ورفضت أن تعيد الأمتحان.

في سنّ الشباب، على عكس جميع الفتيات اللواتي كنّ في مثل سنّها يلبسن شعورهن طويلة ويتفنن بتسريحه ويذهبن الى صالون التجميل كلما سنحت لهن الفرصة، أبقت وداد شعرها قصيراً جدا. لم تسمع كلام البنات لتزور الموزينة وأصرت على أن تستمر أمها، التي كانت تحتج، بقصه لها كما أعتادت. رفضت وداد بشدة أن تتزين بالمساحيق أو أن تلبس الحلي، ولم تضع الحمرة على شفتيها ولا المناكير على أضافر يديها ورجليها. كأي أم أوسطية، حاولت أم وداد تشجيع أبنتها أن تلبس وتتزين كغيرها من البنات لتبدي محاسنها. كانت تقول لها إذا ما هلت بها وقد كادت أن تيأس منها لشدة عنادها، "لقد كبرتي يابنتي وها أنتِ، ماشاألله، صرت عروس. كيف ستراك أمهات العرسان وانت لابسة هكذا مثل الحسن صبي؟"

كانت وداد تقول بمنتهى الجدية، "هكذا أوفر ليّ. أحسن ما أضيع فلوسي على التجميل الكاذب أجمعها لأشتري بها ما ينقصني من أغراض وما أرغبه أنا من لباس...."

أيام الدراسة، كانت وداد تذهب وتعود من المدرسة دون أن تلاحظ أولئك الصبيان الذون كانوا يمرون على أطاريف طريق مدرسة البنات الثانوية ويعاكسوا بعض الطالبات ليحذوا ببسمة من أحداهن. لذلك لم يكتب ولد يوما فيها الأشعار ولا سطر أسمها داخل صفحة كتاب قصائده. وبينما كانت أختاها الأصغر سنا منها تلبسان لأظهار أنوثتهما وتقهقهان إذا ما عاكس أحدهما صبي، تصرفت وداد بمنتهى الأدب والأحتشام ولم تظهر أي أهتمام بأي ولد. وبالرغم من أن طبعها وهي صغيرة كان مثل البارود يتفجر لأي سبب تافه خصوصا إذا ما أنتقدها أحد، لما بدأت تكبر أنقلبت شخصيتها وصارت حساسه بمظهرها وقلّ كلامها حتى لـُقبت بالصموت.

تلقائيا أخذت وداد تهذب طبعها وتتعلم أن تتصرف بأحترام وأنضباطية كي لا ينتبه لها أحد، خصوصا تلك الأمهات اللواتي كن يبحثن عن عرائس لأبنائهن. في الواقع حسدت وداد أخويها سراً. كانا يتصرفان بمطلق الحرية كما بدى لها، يخرجان ويعودان وقت ما حليّ لهما وبدون أذن من أحد. صارت وداد فتاة عنيدة وسكوت ولتصرفها الغريب تدريجيا تخلت عنها صديقاتها أما لعدم أنسجامها معهن او لأنهن قد تزوجن وأنشغلن بأمر أزواجهن وأبنائهن. ولما كانت رؤوس الفتيات مليئة بأحلام الحب والزواج كما كانت تظن، بقيت وداد وحيدة تفكر وتخطط للعمل والأستقلال الأقتصادي والذاتي.

وبعدما أستقرت حياتها الزوجية الى الروتين العائلي بعد الفوضي والأضطراب العظيم الذي مرت به في البداية، قبل نادر زوجته على ما سماه عيوبها وتعلم التعايش مع طبعها الغريب وصمتها الممل. لكن رغم أحتجاجه الشديد وغضبه الناري الذي وصل مرّات كثيرة الى الضرب المبرح والشتم الشنيع، عنادته وداد ورفضت أن تغير عادتها، فإذا خرجت من البيت لبست بنطلونها الجينز. مرّ وقت طويل قبل أن يتمكن نادر من ضبط هيجان رجولته وغيرته العنيفة من تصرفها المتمرد الذي تصوره فاضح، عاص وأثيم. كان نادر بحاجة الى الكثير من ضبط النفس لكظم غيضه الكبير وأطفاء نيران غيرته وهو يتصور عيون الرجال تلحق عجيزتها أينما ذهبت.

كان نادر يتصور نظراتهم الوقحة وهي في نظره تأكل شرائحا من لحم ردفيّ زوجته ويستمتعون بمنظرهما اللطيف المستدير.

لم تكتفي وداد بكونها صارت ربة بيت عليها أدراته وزج عليها طاعته في السرير، فقد بقي شيئا ناقص في حياتها. لم يشفي الغسيل ومسح البلاط وطبخ ما كان يأتي به نادر من لحوم وخضار وجع روحها الى ما هو أعلى وأسمى من أن تكون مجرد ربة بيت. ولما كانت رفقة النسوة وأحاديثهن الساذجة ليس ما ترتاح اليه روحها، في السنة الثانية من الزواج، بعد أن تكن قد أنهت شغل دارها صارت وداد تذهب الى محل زوجها المسمى 'ضوء القمر' على شارع السينما، مركز أربد التجاري. وبالرغم من أن نادر قد شرّط عليها أن لاتأتي وكثيرا ما تشاجرا وشتمها وضربها ووصفها بالزوجة العاقر، أصرت وداد على الحضور. تدريجيا فرضت وداد وجودها في 'ضوء القمر'. وبعد أن تعلمت فن البيع، أحضرت ماكنة الخياطة الى الدكان لتقوم بخياطة أية تغيرات تطلبها الزبائن من رثي ملابس النساء الى تقصيرها او توسيعها مباشرة والزبونة تنتظر. وجودها بالمحل ثم مهارتها بتعديل الثياب، خصوصا فساتين العرائس، رغّب النسوة في 'ضوء القمر'، فكثرت الزبائن وتحسن وضع نادر الأقتصادي أكثر. ولكنه بقي حاقدا عليها لمشاركتها له في الشغل. ولما شكى لأبيه نصحه ان يتحملها قليلا ثم أضاف قائلا ومؤكداً، "للنسوة طباع غريبة والظاهر أن طبع زوجتك من أغربهن. لكن لا تنسى أن وداد خياطة ماهرة ووجودها يجذب الزبائن للمحل. أصبر قليلا لما تخلف ستتخلى عن كل شئ من أجل خاطر أطفالها. . ."

منذ البداية لم يكن في نية وداد الحمل، وبعد أن قبلت مضاجة زوجها صارت تأخذ حبوب منع الحبل سرّا. وبعد عامين من الزواج الماحل، أخذ نادر زوجته الى الطبيب ليفحصها بعد أن نصحته أمه ووافق معها أبوه أن زوجته قد تأخرت بالحمل. لكن كل الفحوصات أثبتت جدارتها كأمرأة فليس في جهازها التناسلي عيب يمنعها أن تحمل مما أضطر نادر أن يثبت رجولته فعمل هو الأخر الفحوصات اللازمة ولم يجد الطبيب به عيب ايضا. عندما بدأت أم نادر تشجع أبنها أن يعمل أطفال أنابيب، في السنة الرابعة من زواجها توقفت وداد عن أخذ حبوب منع الحبل ومباشرة حملة بعلي وبعد ولادته عادت الى عادتها السرية وأستعملت الحبوب كي لا تحمل.

٤

ترأست وداد أحتفال عرس زوجها في عمق صالون قاعة البتراء العامرة بالحركة والغناء على صوت طبل وطبلة فرقة بيروت الساخبة. عندما شاهدت نسوة أربد وداد في حفل زفاف زوجها لم يستغربن وجودها الغير العادي فقط، بل أحترن كيف يجدن سبب يشرحن به تصرفها العجيب وغايتها منه. لم تذكر أية امرأة أن رأت وداد من قبل هذا المساء بدون بنطلون الكاوبوي ووجهها خالي تماما من كل المساحيق عدى الكحل البلدي الأسود في أجفانها. بالنسبة لهن كان أكثر من مدهش أنها قد تزينت في حفل زفاف ضَرّتها وأرتدت فستانا أحمر قاني لائق عليها بالغ في الجمال لدرجة أنه نافس بأناقته تفصيلة العروس. كان ثوب وداد غاية في الموضة الحديثة حيئذ، فعدى عن أنه طويل وفضفاض في جزئه الأسفل، في نصفه الأعلى التف بحنان حول ردفيها وخصرها الناحل كما أحتضن تعاريج بطنها السوي بنعومة وترك ذراعيها وجيدها البيض عارية وكشف عن صدرها المَرمَري الى فلع ثدييها الثقيلين. كانت وداد تعلم أن اللون الأحمر هو لون صواري المفضل فأختارت هذا الفستان المصنوع من الساتان الثمين بعناية من 'بوتيك ضوء القمر' ثم ضبطته بنفسها ليكون على مقاسها تماما.

وعندما سمع الملأ في قاعة البتراء صوت عيرات النار التي كان يطلقها سامر، أحذ النادي يقول، "جاء العريس. جاء العريس. . ."

بعد قليل ظهرت زفة نادر في اللعاة وكان دخولها خمس دقائق قبل الموعد المتفق عليه. ككل الرجال اللذون أحاطوا به، كان العريس في كامل هندامه يقوده من ذراعه أخوه سامر. حفت الشبان بهما وقد بالغوا في الغناء بأعلى أصواتهم وكأنهم بذلك يحاولون أن يطغوا على فرقة بيروت الغنائية وزلغطة ومهاهات النسوة التي صارت في تلك اللحظة أقرب الى الزعاق لشدة حماسهن. كان نادر محاط بجمع من الرجال من أصاحبه وأهله الذين أجتمعوا خصيصا ليحتفوا به ويشجعوه ويثيروا غريزته بأغاني ذكورية واضحة المعنى تكشف أسرار الزواج التي كان يحجم الأخُطاب عن البوح عنها لخطيباتهم ادبا أيام الخطوبة. مرتديا البدلة والملابس التي كانت قد أعدتها له وداد، تحت جاكيت الجوخ الثمين كان قميص نادر الحريري يذوب من العرق. وعندما توقف رفقته به ليزفوه أمام مصور الفديو، حاول نادر أن يخفف من رطوبة قميصه وهو على جسده عن طريق تعريض نفسه للهواء الساخن الذي كانت تحركه المراوح الكهربائية المتدلية من سقف القاعة.

لتثبت للجميع أنها غير حاقدة ولا تحمل أية ضغينة تجاه زوجها أو ضَرّتها - هكذا فهم الموجودون من تصرفها - بالأشتراك مع حماتها وأخوات العريس الثلاث غنت وداد وصفقت ترحب بقدوم زفة العريس. بدافع نفسي داخلي قوي، وكأنها في تلك اللحظة بالذات كانت جاهزة لأبداء أمر مهم يخصها والوقت هو الآن لتعلن على الملأ حقيقة وجودها، من أعماق روحها الملتهبة، فجأة، وبعد أن أخذت نفسا عميقا، غيرت وداد نغمة صوتها وبدأت تغني بصوت جهور عالى الطبقة طغي على كل الأصوات، لدرجة أن الحضور قد أخذوا على غرة وصارت أعينهم تتجول بين وجوه الرجال الداخلون ليتعرفوا على صاحب ذاك الصوت الرخم.

ولما دنى سامر بأخيه من درجات اللوج تناولت وداد يدّ زوجها وصعدت معه ليتجلا بجوار عروسه ويخلّد مصور الفديو تلك اللحظة الهامة في حياة العروسين. لكن وداد لم تهبط درجات المنصة الى ساحة الرقص والغناء بل بقيت واقفة الى جوار زوجها. وهكذا بين التصفيق والغناء تجلى الثلاثة أمام الحضور قبل أن يرفع نادر طرحة التول البيضاء عن وجه زوجته الجديدة. لقد هدأت حبة المسكن التي كان قد أعطاه إيها سامر قليلا من روع العريس من الضجيج الذي ثار حوله. غير أن شيئا من الكسوف بالأضافة الى ذاك الشعور الغامض الذي كان يحيط فكرة زواجه الثاني أخذا يحدثان تآكلا في صدره بشكل أفضع مما كان يتصور فشعر بجفاف حاد في حلقه وصار العرق يتصبب من فوق جبينه وحول عنقه. بعد صعوده المنصة، شعر نادر بأحتقار غريب نحو هؤلاء الذين أخذوا يتزاحموا ليصافحوه ولسبب مبهم لم تأخذه الفرحة لوجود أصحابه اللذون أحتفوا به وأحاطوه من كل صوب تماما كما فعلوا أبان زفافه المرة السابقة.

ولما جاء الوقت ليكشف العريس عن وجه عرسه ويستعيد بذلك ذكرى الأيام الخوالي عندما كان الرجل يرى زوجته لأول مرّة ليلة زفافهما، بأرشاد من زوجته الأولى، بيدان ترتعشان ، سحب نادر الغشاء عن وجه عروسه فبانت صواري للملئ. سارت همسات الأعجاب من فمّ الى فمّ فقد كان محياها كالبدر آية في الجمال وعيناه بسواد الليل. رغم انها كانت ترتدي كعب عالي الإ أنها كانت أقصر من وداد. حسد الكثؤ من صحبة حسن طالعه. ليكسفوه، من أمام اللوج صاروا يصيحون، شباب وصبايا، بصوت واحد، "يا أبو علي قبّل عروسك... يا أبو علي قبّل عروسك..."

غير أن نادر كان قد تحمل كل ما كان بأستطاعة كرجل في مثل سنه من الصبر على ضجيج الزفة والصمّدة فتجاهل النداء. أهتز جسده قليلا وكان مرهف الحسّ وأصابه أضطراب شديد فشعر بدوخة خفيفة وشعر أنه في أية لحظة سيغرق في عرقه الذي بلل جيمع ارجاء جسمه. وفيما يشبه المرض أرتخت همته فالقى بنفسه بشئ من العناد على كنبته والصوت الصغير يهمس في رأسه، "لقد كبرت يا نادر عن لعب هذا الدور! كيف سمحت لنفسك أن تقع بمثل هذه البهدلة؟

مثل هذا الأمور لا يتحملها إلا الشباب...."

لكن وداد أدهشت الكل عندما أنتصبت بطولها أمام العريس وقالت، وهي تجيب على المحتفلين تحت اللوج، "أنا وأبو علي واحد. أنا أقبله وأقبل العروس نيابة عنه...."

ربما للحظة عابرة دامت جزء صغير من الثانية كان هناك صمت عجيب بالقاعة سمعه نادر لوحده قبل أن يعاود المحتفون الرقص والغناء والدبكة. بجرأة يعجز عنها أكبر شيوخ العرب أنحنت وداد وقبلت جبين زوجها المبلل بالعرق حريصة أن لا تقابل عيناها عينيّه. ولما أستدارت ببطئ ملحوظ صوب ضَرّتها وكانتا وجها لوجه، لم تستطع وداد أيقاف قُشعرية باردة لكن قصيرة من أن تسرّي في عمودها الفقري. ورغم أن الفرح في ذلك المساء كان هو القوة المسيطرة عليها، أهتزت قليلا وهي تقابل الفتاة في فستان العرس والطرحة على رأسها. لبضع ثانية هزمت الدموع التي علقت بأهدابها وداد فكان في رأسها سكون وجيز يتسم بالفزع وأهتزت أطرافها قبل أن تمتلك الغيرة أوتارها بالتوتر. وأثار الدمع لازالت واضحة في صفاء مقلتيها، لفترة بدت طويلة نظرت وداد الى أسفل لتقابل عيناها نظرات صواري البلورية الباسمة وكان الحب الذي في باصريها أكثر شفافية من النور. أرادت وداد أن تنتظر حتى تنقضي خنقة الدموع التي تكونت في حنجرتها قبل أن تقبل العروس، غير ان صواري أمكست بيد ضَرّتها المرتشعة وشدّت عليها وكأنها تحاول أن تهدءها وتطمئنها في آن واحد. الظاهر أن العروس لم تكن مرتبكة ولا فقدت ايّ من رباطة جأشها. على ملمس يد صواري أهتز كل جسد وداد بتيار قوي كهربائي قوي دفأها فتمالكت نفسها ثم وضعت كف يدها اليمين على كتف صواري الأيسر. ولما حنت وداد رأسها لتقبلها وتلامس خديهما سمعت العروس تهمس في أذنها، "اللهم يارب بارك بهذا الزواج. . ."

لم يستطع نادر أن يخفض باصريه عن زوجتيه اللتان كانتا لازالتان واقفتان بين باقات الورود فأصابه ما يشبه الهزة لما رأى تلامس خدي المرأتين. خلال ذلك العرض من الوفاق بين الضَرّتان وقفت أم نادر وأخواته الثلاث وراء مقعده وكأنهن مثله قد أستسلمن أمام عناد وداد وصيطرتها على أدارة الحفل. لأحظ العريس عناية وداد بالعروس وهي ترتب لها ثوبها وتساعدها على الجلوس. لهنيهة كان هناك صمت ثقيل في رأسه المضطرب وشرع ذهنه في مثل الحلم يفكر فسمع همس الصوت الصغير في رأسه يقول، "أهذا العرس من عملي أم من عمل وداد؟"

ولكن الضجيج الذي أحاط به من كل الجهات لم يسمح له بالتفكير بأكثر من تلك الملاحظة الحادة ولبعض الوقت أنشغل بأمر نفسه وأخذ يجفف العرق عن رقبته ووجهه بمسحه بأصابعه وهو يتذكر فرحه ونشاطه آبان صمدته وتجليه في عرسه الأول أيام كان شباب. وكي يخفف من توتر نفسه قليلا، أخذ يتحدث مع أمه وأخواته دون ان يحرك يديه وناظراه مثبتان على الجمع الذي كان يتنهد من الحر أمام المنصة. كان صوته رتيبا وعميقا كأنه مياه ساكنة أما الكلام الذي أراد قوله لعروسه الجدية وحفظه عن ظهر قلب وكرره كثيرا لشدة إنفعاله لم يخطر منه على باله ولو جملة واحدة.

امرأة من بين النسوة المذهولات بتصرف وداد العجيب وكن بشكل عام واثقات أن سعادتها وفرحها كانا حقيقيان وليس تمثيل، قالت لصاحباتها من الأناث، "أنظرن كم هي قوية وواثقة النفس الملعونه. والله العظيم لو كنت آني في مكانها لكنت تفجرت من الغضب وأكلت الغيرة من لحمي أرطال . . ."

أحد الرجال الذين كانوا، بشكل عام، يفضلون الوقوف في مؤخرة القاعة ليتفرجوا على النسوة خصوصا الصبايا الراقصات ويحسدون العريس، قال لصديقه الذي يقف بجانبه، "اللهم أجعل زوجتي نادر حلال عليه، يا عمي. من الليلة وطالع والله المنحوس سيتقلب على سريرين من المتعة واللذة التي يتمناها كل رجل...."

فأجاب الصديق سارحا وكأنه يحلم بأمور الحب وتناقظاته، "بالله! فكرك هكذا؟ تقول الناس زوج الأثنتين غلبان ...."

فقط آبان حفل الزواج سمح المجتمع الشرق أوسطي المحافظ أختلاط النسوة بالرجال ومع ذلك كان متوقعا من الفتيان التصرف بمنتهى الحشمة والأدب تجاه الصبايا. هذه التجمعات لم تكسر أياً من القيم والمعايير المتعارف عليه بين الناس، على الأقل بشكل علني. بنيما كانت النسوة المتزوجات يجلسن على الطاولات ويتبادلن أخر القيل والقال وأخبار البلد، تحت اللوج أختلط أقارب العريس والعروس من شباب وبنات يرقصون على أنغام فرقة بيروت الغنائية. بجرئة عرضت الفتيات الغير متزوجات محاسنهن للأمهات اللواتي كن يبحثن عن خطيبات يصلحن زوجات لأبنائهن، بينما أستغل الفتيان الفرصة للتعرف على قريباتهم من الجيل الجديد.

محاطة بثلاث من صديقاتها وترتدي جلبابا زهريا وحجاب أبيض وقلائد الذهب تتدلى من عنقها والأسوار والخواتم ترهج على رصغيها وأصابعها، قالت احدى النسوة وقد صعُب على باصريها تقبل ما ترايانه وكان زوجها يقف مع بقية الرجال في مؤخرة القاعة، "والله يابنات الحلال آني أرى ولكن غير مصدقة! هل هذه هي نفس وداد المستحية التي هربت من نادر ليلة دخلتها؟"

يتحزرن بأن الحديث سيتحول الى ما تفعله الذكور والأناث في غرفة النوم، تطاولت أعناق النسوة اللواتي كن حول المرأة وقربن رؤوسهن من بعضهن البعض كي لا تفوتهن كلمة مما سيقال. أرتدى جميعهن أثمن ملابسهن من جلابيب وحُجُب وتزينّ بأفخر حليهن من أقراط وخواتم وأسوار ذهب وجواهر ترهج في ضياء القاعة القوي. تتكلم بصوت خافت كي لا تسمعها النسوة على الطاولات القريبة منهن، أضافت المرأة ذات الجلباب الزهري وكأنها على علم وافي بالسر، "سامعاتني يا غُبر يا حزينات، لما أختلى نادر بوداد لأول مرّة ليلة دخلته، كان الأثنان مبللين بعض الشئ بالمطر. قال صنعة العرسان قاد نادر وداد من يدها بكل لطف وأقعدها الى جواره على حافة السرير وأخذ يقبلها وهي تقولي صارت صُبّار ثلج متجمد. يرتعش جسده المشتعل بالعشق والغرام حاول نادر رفع هَدب تفصيلتها عنها ليلمسها. قابره أهلها كلهم، القاروطة تجمدت من الخوف وأرتبط لسانها وبكل بساطة سحبت يده عنها وأقصت بنفسها وكأنها تقول له غير مسموح لك أن تلمسني...."

لتبرهن لهن أنها كذلك كانت على علم بسرّ ليلة دخلة نادر على وداد، هزت امرأة ثانية من المجموعة أسوار يديها، وكانت تلبس جلباب أسود وحجاب من ذات اللون، ثم تدخلت بالحديث وقالت، "من أجل ليلة الدخلة كان نادر قد كلف حاله وحجز شقة العرايس في فندق حجازي أبو أربع نجوم...."

تدخلت أصغرهن سنا وكانت في ثياب شرعية بيضاء ترتدي فوقها عبائة ملونة وجهها مدهون بطبقة كثيفة من المكياج وشفتيها مغندرة أحمر فاقع وقالت، "السؤ على العدى، تخمين عرس نادر ووداد كان قبل ما يغلق فندق حجازي ويتحول الى سوق تجاري. . ."

تجاهلت المرأة ذات الجلباب الأسود والتي كانت على يمين الصبية توضيح صديقتها وأستمرت وهي تتسائل، "الشّر بره وبعيد! يعني نادر لم يضاجع وداد ليلة دخلته...."

أجابتها المرأة التي بدأت الحديث بنفس الصوت المنخفض كي لا يسمع أحد خارج الدائرة حديثهن ويعلم بموضع حوارهن السري، "لأ ياغبرة ياحزينة. كانت الدنيا يومها برد ومطر شديد. قال نادر فكر عروسه مكسوفة وحتى يعطيها وقت حتى تلملم حالها وتغير تفصيلتها وتلبس قميص النوم هو راح ودخل على الحمام. قال ياخية صنعت عرسان هذه الأيام، عامل نادر عروسه بلطف وبكل أدب وأحترام...."

قالت أكبرهن لتشرح تعليق صديقتها، "أهيّ رجال هذه الأيام رجال؟ والله ياحبايب كان

الرجل زمان أول يدخل على العروس والسوط بيده والشاطره بنت أبوها تقدر أن تقول لأ أو تعارض وتتدلل وترفض أو تقول أخّ يا بطني ولا أخّ يا رأسي. والله كان سوط عريسها هرى لحمها عن عظمها وأفتعل فيها كما كان يريد...."

وكأنها لاتعي معنى ما سمعته قالت أصغرهن سنا، "دخيل على أله آني! هم رجال أول كانوا من بني آدم؟ بعيد عنك ما هم والله كانوا من بني البهائم. والله أحمر من حمير. . ."

غير أن المرأة التي كانت تتكلم لم تتوقف عن سرد قصتها. ألتفتت حولها ثم أستمرت تقول بنفس الصوت المنخفض، "أقسم بالله العظيم وداد كانت لاتزال في ثوب العرس لما فتحت باب شقة العرسان بفندق حجازي بهدوء ثم شالت هُدُب تفصيلتها وأعطت قدميها للريح وأنهزمت. ولئنها غير عارفة الطريق نسيت المصعد ونزلت الدرج من الطابق السادس. على طرف شارع أيدون، وكان الطين والمطر قد بلل كل شئ، نطت بأول تكسي توقف لها ورجعت الى دار أبيها. قال صنعة العرسان لما طلع نادر من الحمام لابس بجامته ومستعد للحب والغرام، الحزين ما لاقى لاعروس ولا ما يحزنون. ولما لاحظ باب الغرفة مفتوح على عرضه، مثل كل الرجال أول ما خطر بذهنه أن عروسه كانت غير بكر ومستعملة من واحد غيره وانهزمت قبل ما يعرف سرها ويفضحها. فكر الى أين ممكن ستذهب وتحزر أنها لابد عادت الى دار أهلها. على كل حال هو فكر أنه أفضل ما يتصل بالتلفون كان واجب عليه أن يزور أبا وداد ويخبّره بما صار. والله حتى لايعمل فضيحة وشوشرة ويستر على حاله أمام الناس، لبس نادر بدلته ونزل عن الدرج أحسن ما أحد يعرفه يلاقيه بالمصعد ولحق بوداد على دار أهلها...."

لئن الموضع كان يطعن بالشرف ويشوه سمعة المرأة وهي في المجتمع العربي مقدسة يتقاتل الرجال عليها، كان كسوف النسوة الأربعة عميق جدا وبصعوبة تمكنت طبقات المكياج السمكية من إخفاء إحمرار وجوههن. من باب التواضع ولشدة حساسية الموضوع أنكسف بعضهن مراعة للذوق والأحتشام بينما أحتقن الدوم في شرايين الأخريات وتنفسن بصعوبة رهبة من عمق الحديث. واخيرا تمكنت أكبرهن سنا النطق فسألت، "وهل كانت المسلولة بضاعة فاسدة؟"

لتبقي الدرما والتشوق في قصتها لم تجب ذات الجلباب الزهري على سؤال المتكلمة مباشرة. رمشت أهدابها عيناها المصبوغة بالكحل بتردد سريع ثم أستمرت بالكلام بنفس النغمة الباهة، "والله يا خائبات لما أبو وداد فتح باب داره وشاهد بنته واقفة على العتبة تنقط ثيابها ماءً وكان قبل فترة قصيرة قد عاد من حفل زفافها راح ما ينجن. على طول فكر مثل ما فكر نسيبه الجديد بأن البنت بضاعة فاسدة وردها عريسها الى منزل أهلها ليتصرفوا معها حسب الأصول. والله أبو العروس هاج وماج من الغضب ولم يرى أمامه سوى العار والفضيحة التي عادت بها وداد الى بيت أبيها. وشاربه الكثيف يرتجف على فمه من الغيظ والغضب الشديد، أمسك أبو وداد بمعصم وداد بغلضة حتى كاد أن يكسره وجرها داخل الباب قبل أن يلاحظ الجيران عودتها المشؤمة. ومخه يغلي ناراً غضبا عليها بدأ يفكر كيف سيقتلها ليتخلص منها ومن عارها وكيف بدمها النجس يطهر عرضه وعرض أولاده. قبل ما يفتح فمه بكلمة وبذاك الكف الثقيل صفع خدها ثم تفجر غضبه وأخذ يشتمها ويهزها بعنف ويستجوبها ويأمرها أن تشرح له حالا سبب عودتها وأين عريسها ولماذا ما أتي معها؟ ودموعها تجري على خديها مثل الشلال، بصوت منفعل ومتقطع وبكل برائة بدأت وداد تخبر اباها بالذي أراد نادر أن يفعله بها. لما سمع الأب كلام أبنته خفّ حنقه حالا وسالت دموعه من فرحته على سماع الذي كان قد حدث وصار يحمد ربه بصوت عالي. وبعد ما أستراح قليلا أخذ نفس عميق وقال بصوت مسموع وكأنه يأسف لأبنته لتسرعه بالحكم عليها ‘شكرا يارب البنت قليلة المعرفة.’ ولما وصل نادر دار حميه دقائق بعدما كانت قد وصلت عروسه، أخذه حموه على جنب وشرح له الأمر ولماذا هربت البنت منه.

ضحك الأثنان وكأنهما بذلك يخففان على نفسيهما مما اصابهما من نرفزة وتوتر أعصاب وهزة نفسية شديدة بسبب هرب العروس. بعدما هدد أبو وداد أبنته بأسوأ عقاب أن لم تسمح لزوجها أن يأخذ ما أبتغاه منها، أمرها أن ترجع مع زوجها. لما عادت أم وداد وشقيقتيها من حفل الزفاف أخبرهن أبو وداد بما حصل ثم سأل زوجته ألم تفهّمي البنت كل شئ؟ ضحكت أم وداد ملئ شدقيها ثم قالت ‘أهو في زمن السينما والتلفزيون هذا في بنت بالدنيا ما بتعرف! لاء في سبب ثاني وآني لست قادره على فهمه...."

لم تستطع أصغر النسوة المجتمعات أن تضبط نفسها لشدة اضطرابها وقاطعت تسأل، "وما هو هذا السبب؟"

أجابت ذات الجلباب الزهري، "الله أعلم. الواحدة الله بحسابها يوم الدين على الكذب. أم نادر، التي أذاعت قصة كنتها، ما قالت لماذا هربت وداد من أبنها بأكثر من ‘أله جعلها المسلولة ما رجعت وغيمت على حياة ابني’...."

"أهي أم نادر قليلة؟" قالت أكبرهن سنا، "ما هي تكره كنتها كره العمى. كان في بالها تزوج نادر لبنت أختها ونادر رفضها وأصر على أخذ وداد. . ."

وبعد صمت ثقيل قالت أصغرهن، "أهو في حماه بالدنيا بتحب كنتها؟" ثم ضحكت ضحكة تبدو قصيرة وكأنها خائفة ولكنها كانت معدية ففجأة قطع نوع من الضحك الخفيف الذي يبرد النفس المثقلة حبل الصمت الذي إستولا على النسوة الأربعة حول الطاولة.

وأخيرن قالت أكبرهن لتهدئ خواطر صديقاتها، "أهي المسلولة لا تعرف الفروق الكبيرة التي بين فخذي الرجل وفخذي المرأة؟" ثم اضافت بصوت تقريبا طبيعي لترفه عن نفسها، "وحياتكن هذا كله كان تمثيل ودلع بنات!"

الشئ الذي لا تعرفه النسوة أو أي أنسان أخر عدى نادر ووداد أن التاكسي قد عادت بهما من بيت أهلها الى فندق حجازي وهما صامتان. طوال الطريق لم تكن الأصوات التي تصرخ في رأس العروسين تُسمع. ولما وصلا الى شقة العرايس في الطابق السادس كان يتكئ كل منهما على الأخر فقد تركتهما زخة المطر مبللين. وعندما ما دخلا الحجرة للمرة الثانية، أغلق نادر بابها بالمفتاح خلفهما ثم وضعه في جيبه ووداد ترى ما قد فعل. منذ البداية كانت العروس تعلم علم اليقين ما هو أتيا وما الذي سيفعله بها العريس ولكن الذي فعله كان في الحقيقية أسؤ بكثير من أي شي كانت قد فكرت به. وأن تكن الأصوات التي أستمرت تزعق في رأسها توجسا ووجلا ونفورا مما سيحدث لها غير مسموعة، الإ أن حركاتها الآن كانت مختلفة عمّا كانت عليه اؤلا من جراء البرد والمطر الذي بللها حتى ملابسها الداخلية. حاولت وداد التهرب من عريسها الى غرفة الحمام بحجة تجفيف التفصيلة. لكن العريس لم يسمح لها وأوقفها قصاده. في أول محاولة قام بها للمسها، صرخت وداد بصوت غير مكتوم دوى في أرجاء جسدها الذي أهتز كأنما زلزالا عظيما قد قصف بها وحاولت الأفلات والتملص. كان ردّ العريس عليها بلا صوت وبدى بليّ ذراعها حتى أوجعها ثم أخذها من معصمهما وجرها الى السرير. قاومته وداد بأن خربشته في وجهه وهي تصيح بصمت فكان ردّه عدت صفعات قوية على وجهها رفعتها عن الأرض وجعلت طرحتها تطير في الهواء وللحظة تموج شعرها المبلل في الفراغ. بلا رحمة قام نادر بالإمساك بها من خصرها بقوة قبل أن تسقط الى الارض من حمّ الضرب والقى بها على السرير بغلظة بدفعة واحدة ملؤها الفظاظة وأمسك بركبتيها حتى أصبحت بلا حراك. أذعنت وداد في هذه اللحظة للرعب وفقدت وعيها وتحولت من الذهول الى صنم جامد بينما قام العريس بنزع ثيابها وكانه يقلع الحشائش ويقذف بالملابس فتطير في الهواء متأرجحة حتى عرّاها وأغتصبها بعنف داميّ.

رغم ذكائه البديهي لم تفلح المدرسة في إيقاد همة نادر وبقي ذهنه خامل في سنوات تحصيله الدراسي. في الواقع كاد أن يرسب في إمتحان التوجيهي ونجح بثلاث درجات فقط. ولما لم يكن لديه أية طموحات للحصول على مؤاهلات أكاديمية، في سن الثامنة عشر ترك نادر الدراسة ورفض رفضا قاطعا الألتحاق بأحدى الجامعات التجارية التي بدأت تملئ البلد آنذاك. أنحدر أبو نادر من أصلي دمشقي هاجر أهله الى أربد بعد واقعة ميسلون وأمضي عمره مجرد موضف في دائرة الأراضي وقد تقاعد منها مؤخرا. كان أبو نادر مغرما جدا بفكرة التجارة وتمنى لو أن أباه بدل إرساله الى مصر ليدرس في جامعة عين شمس قد فتح له دكانا. بعد خمسة سنوات دراسية صعبة في القاهرة، عاد أبو نادر بشهادة بكالوريس في الأدب العربي ثم توضف بالوسطاة في دائرة أراضي أربد. بعد عام من زواجه لأبنة عمه خلفت منه نادر فانشغل بكسب العيش لعائلته وماتت عنده جميع الطموحات. مثله كمثل إغلبية البشرية أشتغل أبو نادر بما فيه الكفاية ليحافظ على مكانته الأقتصادية التي غالبا ما تحدد وضع الفرد في مجتمعه. أمضى أبو نادر حياته العملية حتى حان وقت تقاعده مجرد موضف يمضي وقت الدوام بالدائرة وبعد القيلولة يذهب الى حانوت صديقه وأبن عمه بو أنس ويبقى عنده حتى الوقب ثم يعود الى بيته ويسهر على التلفيزون. لولا بضعة الدونمات التي ورثها عن أبيه، لما ملك أبو نادر شيئا عدى راتب الوضيفة. ولما كانت أم نادر تنصح أبنها أن يتعلم حرفة أضمن لمستقبله من التجارة، رفض أبنها الفكرة وطاوع أباه وأشتغل بواسطة أبو أنس في أحدى محلات النوفتيه في شارع السينما، مركز أربد التجاري.

كانت مشاعر نادر كاملة النمو وليس فيها تشويها وشبة ليخفيها عن أحد. كان شعوره بالأبتهاج وفي العواطف البيسطة التي عثر عليها في جوهر كيانه شعورا جذريا وأساسيا. ولذلك بسبب بلوغه درجة التعبير المقبول ضمن محيطه ووجود تلك القوة الغريزية التي يتعرّف بها الفرح والأبتهاج في العلاقات الإنسانية، أصبح نادر مشاركا في المجتمع بدل ان يكون فقط متفرجا. ككل الفتيان في سنه، حينئذ ملئ الجنس والبنات رأس نادر وأمضى عضمى ساعات نهاره وهو في دوامة من الإفكار يتحدث مع زملائه عن المتع الجسدية ويحلم بالنسوة ويراقبهن يمرّرن في الشارع من أمام المحل. بالرغم من أن كل فرد من زملاء نادر، مهما كان مذهبه الديني، قد نشأ على أحترام المعايير المحلية بأن الجنس شئ مقدس أستمروا بالحديث عن نساء الرجال الآخرين في نوع من الثورة القيم التي تلجمهم. كان الأغواء بهن وكيفة أغرائهن أهم مواضيع النقاش بين الشباب وهم يعلمون أن اية علاقة بين شاب وفتاة خارج حدود الزواج كانت شئيا فاحشا وإذا ما كُشف السر كان العار على أهل البنت فيقتلونها سرا لئنها أخلت بالعهد ودنست شرفهم . حسب القوانين الدينية، كان المتعارف عليه أن ليلة الدخلة هي المرة الأولى التي يمارس الرجل فيها حقه الطبيعي مع أنثى شرط أن تكون عذراء، هذا الإ إذا كانت مطلقة أو أرملة. غير إن زملاء نادر في المحل أدعوا المعرفة في قرأة حركات النسوة وفهم أشارات شهواتهن، فعلموه كيف يلتقط تلك الإشارات ويفهم ما هو المقصود من وراءها. وبعدما ما كانت تخرج الزبونة من المحل كان زملائه يحللون له تصرفها ليعرف إذا ما كانت 'سهلة' أم 'صعبة مصتعصية' وجب تجنبها كي لا يضيع وقته هباء او يقع معها في مشكلة عرض لا يحمد عقباها. على مر السنين المملة التى أمضوها بين جدران الدكان يخدمون زبائنهم، وأغلبهن من النسوة الضجرات اللواتي كن يأممن المحلات بمفردهن للتسلية، كان الباعة، وفي تلك الأيام كانوا دائما من الذكور، يبحثون عن الأثارة وعن شئ من الخطر ليملئوا ساعات الأنتظارالطويلة. كان زملاء نادر يحلفون له باشد الأيمان بأن الكثير من تلك 'الحريم' المتزوجات اللواتي يأممن المحل ليتفرجن على البضاعة وعادة لا يشترين شيئا، كن مثلهم ضجرات أكلهن الملل فخرجن يبحثن عما يملئ فراغهن وزعموا

أن الكثير من بينهن لسن فقط 'سهلات' يمكن إغوائهن ولكن في الحقيقة كن مباشرة يبحثن عن متعة سرّية عابرة.

بعد توعية صديقه أبو أنس الذي كان على علم بما في عقول الشباب الذون يمضون حياتهم سجناء جدران الدكاكين، خصوصا باعة النوفيتة الذين كانوا على أتصال مباشر بالنسوة، أخذ أبو نادر أبنه نادر على جنب وحذره من التحرش ببنات وزوجات الرجال الأخرون ووعده أن هو حافظ على سمعته وأفلح في الشغل وتمكن من توفير شيئا من راتبه، عندما يحين الوقت اللازم، سيساعده في فتح دكان له وكانت أربد حينئذ كما هي الآن في توسع مضطرد بسبب الهجرات المتعاقبة من البلدان العربية. ولئن نادر، كبيقة شباب العرب، قد نشأ على الطاعة الأبوية وتحت سلاطة لسان أمه التي حاولت تربيته قدر الأمكان على أن لا يخالف لها أو لأبيه أمرا، سمع نادر النصيحة لما فيها من منفعة له. مثله مثل نسبة كبيرة من شبان أربد، زار نادر سرًا ما يُسمى ازدرئا 'البيوت المستورة' وأستأجر بفلوسه جسد مومس ليشبع نزوات شبقه.

بأعتبارها الأم ممثلة لقيم المجتمع، وقفت أم نادر رقابة ضابطية في تربيتها لبناتها الثلاث. ولأقناعهن بتفوق أخويهما عليهن بكل شئ، كثيرا ما وصل الأمر الى حدّ الضرب والأهانة إذا ما أخلت أحداهن وتصرفت تصرفا غير مسموح لهن كأنثى. أقترحت أم نادر على زوجها التسرع في تزويجيهن فذلك في رأيها بمثابة العلاج الناجح الذي منحه الدين والعرف للتخلص من هم العناية المتشددة بالبنات. في ذلك أتفق أبو نادر مع زوجته على أساس ان التأني سيأثر تأثيرا قويا على سلوكهن. غير أن أم نادر حاولت قدر الأمكان المتاح لها كامرأة، الحدّ من سؤ تصرف ولديها اللذان كانا يخرجان من الدار في ايّ وقت حليّ لهما من دون أذنها والأتصال آبان وجودها - وأحينا حتى آبان وجود أبويهما - بالبيت هاتفيا ببنات الناس الشئ الذي كان قطعيا محرما على أخواتهما. فبينما أتفق الأب والأم على الزواج المبكر لبناتهما، اختلف أبو نادر مع زوجته حول الطابع العام المسموح به لتصرف نادر وأخيه سامر كرجلين. فبينما فضل الأب أن ينضج الولدين نفسيا وأجتماعيا ويكون لديهما بعض الأستقلال المادي قبل ان يتحملا مسؤلية الزواج، كان من رأي ام نادر زواج أبنيمها وهما صغيري السن نسبيا في هذا الزمن المتغير الضروف خوفا من أن يوقعهما احدهما في مشكلة أخلاقية هم بغنى عنها. كرجل رأى ابو نادر أن زواج الولد المبكر ضارا في أغلب الأحيان بينما أكدت أم نادر بأن ذلك حميدا حيث تقوم الزوجة بمهمة تطهير نفس الولد من حدة الأنفعالات والحجات الجسدية.

في الضروف الأجتماعية الحالية الي تؤشر الى ما سيكون العالم المتعارف عليه، بدأت تبدو امرا طبيعيا أن يصبح عصر الشباب وقت لعب حر يدخل في نطاق الخيار الشخصي للشاب ليجرب الحب ومتع الحياة. ولكن في نظر المجتع العربي الرجوعي الذي يحارب دفاعا عن بقائه وتراثه وقيمه، كان الأعتقاد أن الحرية الشخصية تدفع الشاب ليس على الإعتماد على النفس ولكن أكثر وأكثر الى الفساد الخلقي فينزلق الشباب الى اللاأخلاقية واللارجوعية لحماية الأهل ومشورتهم مما سيقود الى القلق لعدم الخبرة ومن ثم الى التصرف الوحشي كما يحدث الآن في المجتماعات 'الغربية'.

أما في وجهة نظر المتحررون الأقلية، ستدفع شدة تحفظ المجتمع العربي الشباب ليس فقط على الثورة، بل والخزي من القيم العتيقة لأنها تحدّ من طموحهم الطبيعي وذلك طبعا يثير حنق المجتمع وسخريته من والديّ الفتى لفشلهما في تربية ابنهما بسبب قناعة الأغلبية أن الخلل بالنبل والسمو هو من مظاهر الدمار. الحقيقة التي يجب أن يواجهها العرب هي أن المجتمع الحضري بسبب الكثرة السكانية التي صارت تعد بالملايين ستقلص الروابط العشائرية وحتى العائلية بالأضافة الى أن طابع الجدية والأستقلال المادي اللذان يعبران عن روح الإنسان بمعناها الأنساني الحقيقي تتطلب ان يكون الشخص حاكما لا محكوما لفضائل المجتمع ورذائله. يجب أن

يدرك الأباء أن الأبن الحديث في نظام المجتمع الحضري سيتجاوز حدود النظام التقليدي المتعارف عليها وينتقدها بهدف السمو والعلو البشري فوق النظم العتيقة التي كانت ترغم على العيش في حياة دنونية فارغة. أن الفرد المتفتح جديدا على أشباع غرائزه سيتعلم تلقائيا ما هو مناسبا له وما هو ممكنا له إستملاكه وذلك ليس بالضرورة ما تعتقد التقاليد أنه صواب فالتعارض ينشأ بين الأجيال بحكم السن والحقبة التارخية وفوق كل شئ بحكم الطبيعة البشرية.

بعد خمس سنوات من العمل المتواضب، وفر نادر ما يكفي لدفع خلو محل وأقنع أباه بأنه طموح وجاد في العمل. وفي عام الف وتسعمائة واربعة وثمانون، أستأجر نادر دكانا على شارع السينما بباب واحد سماه نوفتيه ‘ضوْ القمر’ لملابس السيدات الجاهزة. بكفالة أبيه، أخذ نادر قرضا صغيرا من البنك الأهلي أثث به المحل ثم جهزه بالضاعة. وحتى يقف نادر على قدميه وعده أبوه بأنه سيدفع الإيجار عنه. من سن الرابعة والعشرين يوميا، عدى يوم الجمعة، كان نادر يجلس الساعات الطوال لوحده في ‘ضوْ القمر’ بأنتظار الزبائن وكان الشغل في البداية بطئ جدا. بعد تصفح الجريدة - وكان يركز على قرأة أخبار الرياضة - أمضى نادر الوقت وهو يتحسب ماذا سيفعل ببقية النهار.

في تلك السن كان نادر وسيم المحيا رياضي الشكل حليق الوجه وعلى غير عادة الشباب في تلك الأيام لم يقتني بعد شنبا. بشكل عام كان نادر رجلا عاديا بلا نزعة قومية أو تعصب ديني، يأخذه عمق التفكير بأموره الخاصة فقط وخارجها لم يكن يعينه الأمر كثيرا؛ فمثلا ندر جدا أن قرأ نادر كتابا او أخذ رأيا حاسما بشؤون الساعة السياسية أبعد من رؤوس الأقلام. وبعد عامين على تلك الوتيرة المللة جدا، غلب فضوله الخوفَ من الفضيحة، وبدأ نادر بوجل يدرس تصرف النسوة اللواتي بدأن يزرن محله ويبحث بينهن عن ‘السهلة’ كما علمه زملائه. وبعد عدة محاولات فشالة في الأغلب لئنه فقد أعصابه في أخر لحظة، في ظهيرة يوم من أيام أيلول وقد أنتهت عطلة الصيف وعاد الأولاد الى مدارسهم، دخلت ‘ضوْ القمر’ امرأة بمفردها. كان تجار النوفيته النسائية على علم واسع بأوضاع النساء الأجتماعية ومتى هي أوقات قدومهن الى السوق ففي ذلك مدخل رزقهم . العادة بعد أن تفضى ربات البيوت من أشغالهن المنزلية كنّ أما يتازورن أو يجدن سببا ما للخروج الى وسط البلد. ومهما ارادت الزبونة ان ترى من بضاعة، حتى لو قلبت المحل راسا على عقب، أطاعها البائع وعاملها بمنتهى الحشمة والأحترام.

في تلك الظهيرة الملتهبة بشمس أيلول، خمن نادر أن عمر زائرته من اربعة الى خمس وثلاثين سنة ترتدي جلبابا رماديا ثمينا وخمارا حريري من ذات اللون وتتدلا من على كتفها شنطة جلد سوداء كما لاحظ أنها تلبس خاتم الزواج. كانت الزبونة واثقة النفس كلمته من باب المساواة وليس من باب الكسوف الأنثوي وطلبت منه بمنتهى الجرائة أن يريها ما عنده من قمصان نوم. مجرد ما شهادها نادر صار عنده إحساس داخلي شبه واثق أن هذه المرأة ‘سهلة’. بعد ان قلبت بضاعة المحل على بعضها البعض، بدأت المرأة تسأل عن الأسعار وتفاصله فيها. ولما طال الأمر وقد أسكره عطرها، أخذ نادر زمام المبادرة وكانت دقات قلبه تدوي بقوة في صدره، وقال وقد جفّ الريق في حلقة، "لماذا لا تجربي هذا القميص؟"

وكأن نفسية المرأة كانت على نفس موجة نفسيته وكلما كانت بحاجة له هو كلمة مشجعة من الشاب الحليق الذي يقف أمامها لتدلها على أنه قد فهم قصدها من وراء الزيارة. ولما سمعت صوته المرتجف، رفعت عينيها المتوهجة وحدقت طويلا في عينيه ثم قالت، "أين هي غرفة القياس؟"

رفع نادر القميص من باكيته وكان لونه أصفر ذهبي، وأخذه الى غرفة القياس ثم نادى عليها، "تفضلي يا سيدتي وجربي القميص. . ."

على توئده، سارت المرأة صوبه الى مؤخرة المحل وقبل أن تدخل تقابلت عيونهم للهنيهة

ثم دخلت غرفة القياس وسحبت الغطاء ورائها. أحتراما أنسحب نادر بضعة خطوات الى الخلف وأخذ يراقب باب المحل بقلق شديد جزعا من أن يدخل عليه أحد في تلك اللحظة الحرجة ويمنعه من أستغلال أول فرصة سنحت له بمثل هذه البساطة والوضوح. بعد قليل سمع صوت المرأة من خلف الستارة تدعوه. قفز نادر الى غرفة القياس وكانت المرأة قد خلعت خمارها وجلبابها ووقفت سافرة وكأنها في أنتظاره. أسكره عطرها وملئ عليه جميع حواسه. في المرّة الأولى لم يتمكن نادر أكثر من طبع القبل على وجهها وفيها ولكن لما عادت بعد أسبوع كان أهدأ خاطرا وتمكنا من الملاطفة والعناق الطويل. فيما بعد عادت تلك المرأة بين الآونة والآخرى الى 'ضؤ القمر' ثم أختفت كليا ولم يعرف نادر عنها شيئا، حتى أسمها بقي مجهولا.

مع كل امرأة تعّرف عليها، صار ضبط 'السهلة' من بين زبوناته أهون، فزادت جرأتة في معاملة النساء بشكل عام، وصار ينكت ويضحك معهن ولكن دائما بمنتهى الأحترام مما جعل نادر بائعا أشطر. تخوفا من العواقب الوخيمة التي قد توهم أحدى البنات أوالعوانس بالأرتباط به وتتصورأنه يحبها وطبعا ينوي الزواج منها، تعلم نادر أن يبحث فقط عن المتزوجات من بين النسوة 'السهلات'. بعد وقت صارت بعض النسوة يزرنه للجنس فقط. على كل حال ذاعت سمعة 'ضؤ القمر' في اربد فكثرة زبائنه وزاد ربحه.

ولما دنى عمر نادر من الثلاثين عاما، صارت أمه تحثه على الزواج وكانت قد أختارت له أبنه أختها 'هيام' التي كان لها من العمر حينئذ ثمانية عشر سنة. لقد نجحت هيام بالتوجيهي لتوها وبمعدل حسن غير أن أباها لم يسمح لها بتكميل علمها ففي رأيه الأنثى أخرتها بالبيت حتى لو أخذت الدكتوراه. بعد أن وهّمت أم نادر أختها بأنها ناوية أن تطلب أبنتها هيام لبكرها نادر، كانت أم هيام تسمح لأبنتها أن تزور دار خالتها في المساء عندما يكون نادر قد عاد من الشغل. وإذا ما خلت أم نادر بأبنها كانت تصف له محاسن هيام وأدبها وحشمة ردائها وأنها بنت ناس أكابر ومحترمون، ثم تشير الى جمال هيام وتفند له محاسنها مثل: ثقل ثدييها وعلو ردفيها الذي يعني قدرتها على الحمل. غير أن ما سماه بالطريقة الوقحة في نظره والتى كانت أبنة خالته تتمختر بها أمامه وتغمزه، كانت تذكره بجرأة النسوة اللواتي كن يترددن على 'ضؤ القمر' فقرف منها. من باب الأدب وأحتراما لخالته لم يقل نادر ذلك لأمه التي لم تفهم أمتناعه عن خطوبة هيام قبل 'أن يخطفها أحد أخر وتفلت منّا' كما كانت تزعم لتعجله.

كان نادر مغرما بالنسوة القويات الشخصية اللواتي كن يبتسمن بأدب وتبقي نظرات عيونهن ثابة على عينيه من دون تصنع الكسوف الكاذب. آبان ذلك الوقت الحرج ونادر تحت ضغط أمه ليتزوج هيام ظهرت وداد في حياته. منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها وداد 'ضؤ القمر' بصحبة ما توهم نادر آنذاك أنهن صديقاتها، مباشرة لاحظ أن وجهها الصبياني الوسيم كان خالي تماما من المساحيق عدى الكحل الذي أعطى بياض عينيها عمقا وأهدابها طولا وسوادا جميلا. بالنسة للبنات اللوتي كن برفقتها، أتسم تصرف وداد وكلامها بالعفوية وبالبراءة والصدق. رغم أنها كانت سافرة الرأس وترتدي بنطلون كاوبوي، في رأيه كان لباسها أكثر حشمة أذا ما قورنت بتصرف النسوة اللواتي يترددن على 'ضؤ القمر'. اما إذا ما أبتسم وجاءت عيناه في عينيها أبتسمت له ولم تمثل الكسوف الأنثوي أو الجفل المصطنع وابقت نظرتها ثابة في وجهه وقد راق له ذلك كثيرا.

وكأن القدر قد حدد مصيرهما، ففي ذلك الوقت القلق بالذات ظهرت وداد في 'ضؤ القمر' وحالا قرن نادر ظهورها المفاجئ بالشعور العاطفي الذي كان وقتها بلا آناة يلعب في صدره.

وهويمضي الساعات الطوال وحده في المحل، كان نادر يحلل ظهورها كحقيقة يمكن ان لا تكون حقيقته لولا أن مشيئة القدر قد وضعتها عند هذا المنعطف في حياته ليبدأ وإياها فصلا جديدا. آبان تلك الأزمة التي كان يخوضها وبرغم معرفته بكثير من النساء، فكر نادر أن ظهور وداد العابر كان بمنتهى الغرابة و لابد أن للقدر فيه يدّ. بعد كل زيارة لها الى المحل، كانت أبتسامتها العفوية وجديتها وإنغماسها بالعمل تشبع تلك الأحاسيس المتناقضة التي كان يشعر بها وتثير لبلبة الأفكار التي كانت حينذاك تتددن في رأسه الصاخب بكثرة المشاريع وأهمها كانت فكرة الزواج التي كان والداه يلحّان عليه بها بإستمرار، خصوصا أمه التي لم تفتأ أن تطرأ ذكر هيام على مسمعه.

لم يكن نادر كبقية الرجال يبحث عن فتاة عادية في جمالها وفي إوصافها الظاهرية كما كانت تعتقد أمه، بل في الحقيقة كان يريد زوجة تفي بالحجات الجمالية الباطنية التي حددتها معرفته السطحية بالنسوة 'السهلات'. لقد أراد نادر شئيا أثير وفخم وأكثر برائة مما كانت تعرضه هيام عليه. ولما فشل بالعثورعلى عروس مناسبة من بين قريباته في أربد ودمشق، بدأ نادر يبحث عنها خارج حدود بيئته المحلية. في الواقع كانت ميول نادر شديدة لتذوق كل ما هو غريب وبعيد عن العوامل المؤثرة في النزعة العاطفية البحتة فبدأ يصبو الى امرأة مثل تلك النسوة اللواتي كان يصفهن أبوه من الزمن الماضي. وهكذا جرى سعيه الى تخطي المكان والزمان الحاليين الى المستويات الأجتماعية العتيقة على أمل التوصل الى فتاة أحلامه.

آبان الأشهر التي تبعت ظهورها فيه لأول مرّة، زارت وداد 'ضؤ القمر' مرات عديدة وأصبحت من زبائن المحل الوثيقات. في كل مرّة جاءت فيها وداد الى المحل كانت برفقة مجموعة جديدة من الفتيات اللواتي كن يأخذن رأيها على أساس أنها خبيرة بنوعية القماش وحسن التفصيل وضبط الخياطة. كانت ثقتهن كبيرة بنزاهة وداد كخياطة محترفة يمكنها أجراء أية تغيرات يتطلبنها ببراعة وأتقان. لقد تركت مهارتها وخفة دمها والطريقة الحرفية التي أقنعت فيها الفتيات بالشراء تأثيرا وأنطباعا حسن في نفس نادر. رغم عدم تزينها والإفتخار بأنوثتها فتنت ضوئية وجهها الصبياني ناعم المظهر نادر. في الواقع تميز تصرف وداد بالبدهية والإتزان الهادئ والجمال الشاعري المتوافق وكانت خطاها على الأرض سهلة الإيقاع لاتصنع بها مثل التمختر وهزّ الأرداف الذي تمارسه أغلبية بنات حواء. كل ذلك كان مثالي من وجهة نظر نادر وقدر أنه بإمكانها تلوين حياته في سمة طبيعية مرتعشة الإحاسيس وهو الشئ الذي أعتذر عليه إلتقاطه من اية فتاة أخرى فصار يفكر فيها حتى أقنع نفسه، "إنني أتذكر آني قد رايت هذه البنت في بعض أحلامي السابقة...." وبعد ذلك أخذ ينظر اليها وهو يظن أنه يراها لأول مرّة بعد كل زيارة.

وفي أخر مرّة زارته وداد قبل أن يخبر أبويه بأنه قد وجد الفتاة التي يود من كل قلبه أن يتزوجها، كانت برفقة مجموعة جديدة من الفتيات. على عكس العادة عندما دخلت البنات وكن يهرجن في الحديث ويقهقهن كالعادة، لم يقم نادر عن مقعده ونظر الى أعلى لوداد من على الكرسي الذي جعله يثبت على رجليه الخلفيتين ويهزه وهي واقفة أمامه تسند ذراعها الطويل العاري على المنضدة وتنظر اليه بهدؤ وهي تشرح ما ترغب أن يريهن من البضاعة الجديدة التي كانت قد وصلت لتوها. لكن نادر لم يتحرك وبقي يتمرجح على كرسيه الأسود ذو الظهر العالي ويدرس تفاصيل وجهها بدقة وكأنه لم يسمعها أو ربما ترك لها المجال لتطيل له بالحديث لئن صوتها كان يطربه. وكل ما عمّق الرؤية في خديها وعينيها اللتان بلون العسل الصافي كانت دقات قلبه تتسارع في صدره وظن أنه سيقفز من قفصه ليحتضن هذه الفتاة البلورية التي سلبت عقله. لأول مرّة رأي نادر أن أهداب عينا وداد السوداء الطويلة كانت مضاءة كما أشعة الشمس في وقت الظهيرة. ليهدأ دقات قلبه قليلا أشعل نادر سيجارة وابتلع دخانها بنهم ثم أستند عن الكرسي وأنتصب خلف المنضدة ليخدم زبوناته.

وبينما أنشغلت وداد بأمر البنات اللواتي أتين معها، في نفسها صارت تستغرب تباطأ صاحب المحل عن خدمتهن ولا تجد له سببا. وبعدما أشارت للملابس الجديدة وتكلمت بأسهاب عن روعة التفصيل وجيدة القماش، أستدارت وداد وكأنها شعرت بنظرته الناعمة البراقة على كتفيها وجهها من خلف ظهرها عندئذ أدركت أنها هي كانت تراه لأول مرّة بمنظار الأعجاب. وبينما كانت البنات مشغولات يفحصن الملابس، ظل الحال بينهما على ذلك لبضعة ثواني أمتدت وكأنها الأبدية وهما لايفعلان شئيا أكثر من أن ينظر كلاهما الى الآخر وهي بعفوية تركي يدّها اليمنى على سطح المنضدة .

مدّ نادر يدّه على المنضد المستطيل وبلطف أخذ يتحسس سطحها صوب يدّ وداد ولكن أصابعه اصطدمت بأحد كؤوس الشاي الفارغة فتوقف عن محاولة الوصول اليها ولكن ترك يده مكانها وكانت يدّها لا تزال فوق المسطح. أعتقد نادر أن وداد قد فهمت قصده وإلا ما أبقدت يدها فوق الطاولة. في المحاولة الثانية لم يكن نادر واثقا من أنها كانت عفوية أو عن قصد التقت أطراف أصابعهما على المنضد لكنه سرّ كثيرا عندما تلامست رؤوس أصابعهما وارتعش جسده بمثل قشعرية الحمى وأحس بالنار تلتهب تحت جلد وجهه الذي إحمر. أما وداد التي لم تفهم قصده أرتجت أطرافها لاشعوريا تحت تأثير التلامس برجفة لم تشعر بمثيل لها في حياتها من قبل؛ كأن تياراً كهربائي قد نفظها وبعد تفكير سحبت يدّها لاإراديا. فجأة وكأن شيئا لم يحدث، قالت وداد للبنات اللواتي كن معها، وعيناها ترمقان عينيه، "هيا بنا يا أخوات ليس معنا كثيرا من الوقت والسوق كبير...."

نهضت البنات واقفات وأتجهن صوب الباب ترعي وداد بهن من الخلف. وقبل أن تخرج من المحل، التفت وداد الى الوراء وعلى وجهها الصبياني وثغرها اللطيف شبح أبتسامة جعلت نادر يشعر بالحيرة من تسرعها الفجائي بالمغادرة وما هو قصدها من تلك النظرة الأخيرة الباسمة ففكر لنفسه وعيناه تلحقانها، "هلّ يا ترى سأرها ثانية؟"

بعد أختفأ وداد من المحل عاد نادر وجلس على كرسيه يمتص دخان سيجارته بنهم وهو يفكر بجدية ماذا ستكون خطوته التالية. كان واثقا تمام الثقة بأن نظرات وداد وهي تغادر كانت تقول له، "لقد فهمت قصدك!"

ولما أستقر حكم قلبه المباشر على الإحساس الإنساني العاطفي الذي جاب في صدره كما الفراشة ترفرف بين الزهور، رقّ الدمع في عينيه لشدة الحب. ولكن أدراكه الباطني خالف إحاسيسه الظهارة، فقد بقي ذاك اللغز المبهم الذي لم يستطيع حلّه منذ البداية نقطة حيرة وتردد. منطقيا لم يفهم نادر لماذا أختلف تصرف وداد بذلك الفارق الكبير عن بقية النسوة اللواتي مررن بحياته بالرغم، من إنها تبدو مظهريا (من لباسها) حديثة وحتى متحررة. لكن بالرغم من أبسامتها العريضة وحديثها الأنثوي الناعم، ظلت حقيقتها الداخلية شبه لغز فهو لم يشعر ولو مرّة واحدة أنها بادلته عمق تلك العواطف الغريزية التي تجذب الرجل الى المرأة. ‘إذا كانت تفهم ما يخبأه قلبي لماذا لم تأتي الى المحل وحدها حتى على الأقل تشبع فضولها؟’ ولكن بقيت الأجابة مبهمة وغير قابلة للأدراك البسيط.

وجد نادر نفسه في ذلك الوضع المحير وبالنهاية - تحت ضغط والديه اللذان أذنا أن الوقت قد حان ليزوجاه - لم يجد عقله حلا غير تأييد حكم قلبه بالإدراك بواسطة الحواس الخارجية التي غالبا ما توخطء. إستنادا الى هذا الإحساس العاطفي الشفوي المبني على خبرته الشخصية مع النسوة ‘السهلات’ من زائرات ‘ضوء القمر’ أصبح عند نادر الحق أن يقبل بأنطباعاته الأولية. في نظر نادر كانت وداد عفيفة وشريفة وكذلك غريبة الأطوار ولكن هذا لا يمنع حبه لها دون الرجوع الى القواعد المحددة للتصرف البشري ومعاييره في الأمر الطبيعي غير المتكلف أو المتصنع. قرر نادر أنه كان كرجل متحرر كان له الحق أن يخوض في موضوع الحب إستنادا

الى الواقع الذي أمامه متميزا بثقة أحاسيسه الغريزية. في رأي نادر كان الحب ذوق متحيز يسمح له ليس بالأسهاب بالتعبير فقط بل وفي الجنوح الى الأحلام بالإضافة الى تأكيده على أن كل الجوانب الأخلاقية عند وداد كانت مصونة. كان لذلك الأستنباط قيمة بديهية ذات أهمية قصوى حسب التطلع الذكوري العربي الى الطبيعة الأنثوية لما فيها من تنويع في الأضواء العقلية والمشاعر العاطفية عند الرجل.

وهكذا أثار تصرف وداد الغير عادي فضوله فحازت على جزء كبير من تفكيره وأهتمامه الشخصي. نوع ما من الحب نمى في فؤاده فأصبح الأمر مهما جدا أن يتعرف على كل شئ يخصّها. ولما أعلن على أبويه أن أختار الفتاة التي يرغب الزواج منها، عارضت أمه بشدة على أساس انهم لا يعلمون شيئا عن أهلها. وقف نادر بالمرصاد لأمه وفند جميع إعتراظاتها وأن أهل وداد من عائلة نابلسية مهمة رحل جدّها الى أربد قبل نكبة الألف وتسعمائة وثمانية واربعون ليشتغل بالتدريس وأن أباها يحمل شهادة جامعية والآن يشغل منصبا عاليا في دائرة حكومية. وعندما فشل كل شئ لتقنع أبنها بالعدول عن وداد ليقبل أبنة أختها هيام عروسا، فاض بأم نادر الغضب وصرخت في وجهه، "ما بك؟ ألست رجل؟ اتريد أن تستبدل جمال هيام الصبية التي لها من العمر ثمانية عشر سنة بوداد العانس أبنة الخمس وعشرون سنة؟"

والأغرب من كل هذا، أنه عندما أتى نادر برفقة أبيه الى دار ابي وداد ليخطبها وافقت وداد حالا بالرغم من أنها في الماضي كانت قد رفضت أخُطابا كثر من عائلات معروفة أكثر من عائلة نادر.

٧

في الحقيقة لم يكن في تربية وداد العربية شئ خارج الطبيعي ليجعلها تختلف عن بنات جيلها في نفسيتها الأخلاقية وفي طموحاتها بذلك القدر الذي لاحظه نادر وأقنعه أنها الفتاة المناسبة لتكون زوجته. مثله، أنحدرت وداد من عائلة من الطبقة الوسطى أمتلكت بيتا في وسط البلدة القديمة. كانت طفولة وداد سعيدة ومنذ صغرها فضلت اللعب مع الأولاد على لعب البنات حتى حازت على كنية 'حسن صبي'. بدأت تظهر جوهرية باطنيتها بشكل واضح خصوصا لأمها التي كانت تراقبها عن كثب قبل أقتربها من سن البلوغ. ولإرغام وداد على أرتداء الفستاين ولتكف عن قصّ شعرها وتربيته ليطول مثل البنات، أضطرت أمها لأستعمال العنف خصوصا لتمنعها من الخروج من البيت والأختلاط بالصبيان. لكن وداد كانت فتاة عنيدة وحتى بالضرب لم تسمع الكلام. بعد حلّة المدرسة كانت آحيانا تتباطئ وتتوانّى في العودة الى الدار لتلعب كرة القدم مع الصبيان وتسابقهم وتشاجرهم وإذا ما أعتدى عليها واحدٌ منهم تخانقت معه بالأيدي والأقدام وغالبا ما كسبت القتال وتركت الولد ملقي على الأرض وأصحابه من حوله ينعتونه بالجبن لئن بنتا كانت أقوى منه. قلقة على أبنتها خوفا من أن يفعل بها الغلمان شيئا شنيعا لاتحمد عقباه، أمرت أم وداد أبنتيها بالتجسس على أختهما الكبرى. قامت الأختان بمهمتها على أحسن وجه وأوصلتا كل أخبار وداد الى مسمع أمهما التي كانت تعاقبها بالضرب الشديد وبحجزها بالبيت فلا تسمح لها بالخروج حتى للذهاب الى المدرسة. آبان هذه الفترة الحرجة فكرت أم وداد بتطهير أبنتها (قصّ زُبانتها كما كانت تقول) لتهدء وتتصرف تصرفا بناتيا. ولشدة قلقها وصل الوضع أن أم وداد فاتحت زوجها بالموضع. غير أن هذه المرحلة الصبيانية لم تدم طويلا في حياة وداد. فلما بلغت سنّ الحلم جرى تغير واضح ومفاجئ على شخصيتها وأنقلب تصرفها عما كان يميزها عن البنات سابقا لتدعى 'حسن صبي'.

في مرحلة البلوغ بدأت أم وداد بصبغ دماغ أبنتها وأقناعها بأن الذكر أحسن من الأنثى.

ولكن رغم كل ما كانت أمها تهيله عليها من شتائم وكلاما شديد وأحيانا ضربا مبرح، فشلت بإقناع وداد بتفوق الرجل على المرأة كأمر سماوي مخالفته تدنو من الكفر وأن الناس قد حكمت أن لبس البنطلون مخصص للذكور. منذ صارت تتذكر وجدت وداد نظرة البنات الضعيفة المستسلمة للرجل غباءً صُعب عليها تقبّله. في صحبتهن شعرت أنها غريبة فلم تستطع نفسيتها مسايرتهن في التصنع بالكلام والمشي وتمايل الأرداف وتحكّم الموضى الغاشم بهن. رفضت نفسانية وداد أن تقبل أن تصرف الفتى أو الفتاة وطرق تمثيلهما وقدرتهما في التحكم في ميول عصرهما بشكل فردي أو جماعي يقوم على أساس الأنماط الدارجة فكل عصر له قيمه الجمالية الخاصة به. يزعم الشباب أن أسلوبهم الحديث في قصّ شعورهم وتفصيل ثيابهم حداثة وحياة أكثر تقدما مما مضى في الجيل السابق من حيث خصائص الشكل الجمالي وأسلوب اللباس وتوسيع الأفق الجمالي التعاقبي. أن قيمة إختلاف أساليب التصرف فيما يسميه الشباب 'حديث' (أو مدرن كما يفضل بعضهم القول) في الكلام وفي اللباس في الأجيال المتعاقبة هو في الواقع تركيز على أسباب خيالية أو واقعية وربط التصرف بالعوامل الخارجية كالحروب والإحتلال والتأثر والتشبه بما يُسمى هذه الأيام 'الشعوب المتقدمة' كالأمريكان والأروبيون. الحقيقة الثابتة هي أن تصرف الشباب في كل جيل يعكس وجدان العصر. فالشاب لا ينظر الى علاقته بالماضي بل تحديدا في المستقبل وفي تسرعه الغاشم للتحديث يدمر الكثير من القيم والأعراف والأخص العادات التي يزعم أنها خرافات تثقل خطوات المجتمع الى التحرر.

لما بلغت وداد سنّ الحلم، فجأة بدأت تنفر من رفقة الأولاد حتى أنها في وقت قصير صارت تكره صحبتهم ولم تعد تطيق قربهم منها مما جعل أمها تتراجع عن فكرة تطيرها. لكن هذا التغير الغريب في شخصيتها لم يقربها من البنات. لم تقبل وداد مجالسة النسوة لأنها كانت تراهن بما يشبه الدمّى، يمكنهن العيش في نوع أخر من واقع غير حقيقي مملؤ بالبذخ الكاذب بتقدم أزواجهن وأولادهن وليس بناتهن أو حتى أنفسهن، هكذا يتوارثن أم عن جدة نظرتهن البسيطة الى الحياة والموت ولا يأملن من الدنيا بأكثر من حسن القيام 'بوظيفة' ربة البيت. كانت وداد ترى كم هي حياتهن قاسية وكم هي جلودهن خشنة وسمكية وأعماقهن بعيدة لا تستطيع إدراكها; حتى ضحكاتهن بدت لها قصيرة وكأنهن خائفات أن يسمعهن رجل ما فينتقد جرأتهن وفجرهن. كانت وداد تلاحظ إذا ما خلى عدد قليل من القريبات لأنفسهن فأنهن لا يوفرن أحدا من الرجال يشكين ظلمهم وتعسفهم وقضمهن حتى الجلد. لذلك ولشئ أخر ما زال شبه مبهم عليها، تجنبت وداد الأختلاط بالنساء إجتماعيا كي لايلكن لحمها حتى الجلد في الليل وفي النهار ويملأن لياليهن الطويلة الفارغة بسيرتها العجيبة.

عدم قدرتها على فهم الأسباب التي جعلتها تتختلف بالتفكير والتصرف عن غيرها من بنات حواء، عقّد نفسية وداد أكثر فصارت سكوت وعنود تكره الخروج والذهاب الى المدرسة حيث كانت تشعر أنها وحيدة بين مئات الطالبات. غير أن وداد أستمرت تعصى أبويها فإذا صدف وخرجت الى الشارع العام، كانت ترفض أن تخرج بغير بنطبون الكابوي والبلوزة الفضفاضة من فوقه فحُجر عليها بالبيت آحيانا لشهر بأكمله. رسوب وداد بالدراسة لم يكن بسبب غبائها، على العكس ربما كان بسببه أنها فشلت ذلك الفشل الضريع.

وفي سنّ الثامنة عشر سقطت وداد بالتوجيهي العام ولما رفضت إعادة الإمتحان بقيت أسيرة البيت. بعد أن تُنهي شغل الدار، كانت تمضي أغلب الوقت في النوم. رفضت وداد رفضا شديدا أن تنخطب وهددت أبويها بأنها تفضل أن تقتل نفسها إذا ما أجبراها على القبول. بقي أمر وداد هكذا معلقا لمدة ثلاث سنوات تزوجت خلالها كلتا أختاها الأصغر سنّا منها. ولما تعدى عمر وداد الثالثة والعشرين أخذت أمها تعتقد أن إنعزالية أبنتها سيجعل عُنسها أمر محتمل فبدأت تتحسب لمستقبلها. وبعد نقاش معضلة أبنتهما وافق الأب مع زوجته بأن الخيَاطة مهنة شريفة

وفي يد خيّاطة ماهرة مكسبة ماديا. بعثت أم وداد أبنتها لتتعلم فن الخيَاطة الحديثة عند خيّاطة ذائعة السمعة.

لم يأخذ وداد وقتا طويلا لتدرك أن الخياطة فنا ليس بالأمر السهل الأبداع فيه من دون الأنخراط الذهني الكامل وقد راق لها التحدي. بعد فترة وجيزة تمكنت وداد من ماكنة الخيَاطة وصارت تقوم بالأشياء السهلة أولا; مثل خياطة الأزرار والرثي وتقصير الفساتين الى أخره. يمكن القول أن وداد التي بدأت مشوار الشغل عند الخيّاطة قهرا، بدأت تؤمن أن الخيَاطة هي موهبتّها كما أنها مهنة قد تتيح لها الإستياعب الذهني والأكتفاء النفسي. وقد وافقت مع أمها التي قالت لتشجعها، "أن الخيّاطة الشاطرة تساوي وزنها ذهب...."

بعد عام من التدريب والشغل في مشغل الخيَاطة الذي تعلمت به تفتحت وداد للحياة وسار لها زميلات عمل يتباحثن في أمر الشغل وآحيانا يتوسع الحديث بهن ليشمل أموراً أخرى. سُعدت أم وداد بالتغير الملحوظ في تصرف أبنتها التي بدت لها وكأنها قد وُلدت من جديد. وبعد أن مدحت تقدم وداد عند الخيّاطة ألحت أم وداد على زوجها أن يشتري ماكنة خيَاطة لأبنته. بعد تردد دام أكثر من ستة أشهر، أقتنع أبو داد بالفكرة وإبتاع ماكنة خياطة لأبنته التي شكرته بحرارة لدرجة أنها بكت لشدة فرحتها. تخصصت وداد في الخياطة الفنية كتطريز الشروش وولكنها إشتهرت بتعديل الفساتين الثمينة ومن ضمنها تفاصيل العرائس. ولمهارتها في ذلك ذاعت سمعتها وصارت البنات يطلبنها لتذهب معهن الى المحلات، مقابل اجرة، لتساعدهن في إختيار الملابس المناسبة لمُناسبة خطوبة أو عرس. في مشوار من تلك المشاوير الى شارع السينما قابلت وداد نادر لأول مرّة.

تأثرت وداد كثيرا بوسامة نادر كرجل وأعجبت بتصرفاته وأدبه الودود مع الصبايا اللواتي كن برفقتها أضف الى ما سبق أنها رأته على الحال ما كانت تتصور الشاب المؤدب أن يكون، اي غير مزيفا أو أنتهازيا. على عكس أكثر الباعة في شارع السينما - وفي ثمانيات القرن العشرين لازالت أغلبيتم من الذكور- بدى لها نادر رجل مهذب يخفظ ناظريه حياءً وأحتراما عند دخول الزبونة. كانت وداد تتخيل أن أكثر الباعة الذكور عادة كانوا سليطي اللسان وان نظراتهم تحمل معنى الأحتقار للأنثى وغلاظة القلب في المعاملة. لقد إعتادت وداد إذا دخلت محلا أن يبدو لها أن البائع (وعادة يكون رجل) قليل الحياء. كانت مقتنعه أن أول ما كان يفعله عند دخول الزبونة هو أن يأخذ شهيقا عميقا، وكأنه في حالة أنتعاش مفاجئة ثم يغمز من كان جالسا عنده من أصدقاء ويهمس لهم معجبا وهو مغمض العينين، "يا سلام سلم، بنتُ من هذه التي دخلت علينا تفيح منها رائحة العطر والجمال؟"

تزعم الفئة الأصولية من الناس أنه من حقّ القيم الأخلاقية العربية والأسلامية أن تحكم ليس فقط على زي وملبس وتصرف الشباب خصوصا الفتيات بل أيضا لون القماش وطريقة تفصيله وأرتدائه. أن التحشم في ذلك هو الفيصل في الحكم على خلق البنت أستنادا في ذلك على قياس مبادئ الخير والشر (اي إفساد دين الذكر) بمعايير جمالية سطحية بحتة. لذلك منح العرف الذكر الإستمتاع بأسمى مكانة في المجتمع العربي بينما خضعت المرأة لجميع القيم الإنسانية الأخلاقية الأخرى التي وقع تحديدها تحت طائلة علماء الدين الذين هم عادة ذكور من الطبقة المحافظة. فإذا رأى شاب فتاة في زي الإثارة مصمم على الهاب الشهوات عنده، فأن الأثم على المرأة التي يجب أن تكون أخلاقية. لحماية أخلاق الذكر، وبالتحديد طهارة دينه، أقر العلماء أنه من الأفضل أن لا تُرى الأنثى في الأماكن العامة وتبقي كموضع للتأمل عند الشاب.

نجى زواج وداد ونادر بمعجزة من عذاب مخاض ليلة العرس الدامية ولكنه بقي جريحا مخضب بدماء العروس لعدة أشهر قبل أن يتشافى. في الحقيقة لولا أن تدخلت يدّ القدر في زيّ أم نادر التي في شهر زواج أبنتها الأول لم تتركها وحدها لتعاني مغبة شراسة هجوم أم نادر عليها، لهربت وداد من بيتها وعادت الى بيت أهلها وأنتهى الأمر بالطلاق. أغلب الأيام كانت أم وداد بعد مغادرة نادر الى 'ضوء القمر'، تزور أبنتها وبعد أن تعلمها الطبخ والكوي وافضل الطرق للعناية بالبيت لترضي زوجها، كانت المرأتان تجلسان وتتحدثان عن جميع أمور الحياة ثم ترشد الأم الأبنة الى معنى التصرف الأصولي السوي في العلاقة الزوجية.

كانت أمها تقول لها، وهما متقابلتان في بلكونة الشقة كل على كرسيّها، "وداد، حبيبتي؛ يجب أن لا يقتصر ما يتعلمه الأنسان فقط على ضمّ كل المهارات الإنسانية بدئا بتدريب الطفل في الصف وفي ساحة المدرسة. المفهوم الذي يسود الإعتقاد الذي رُبيت آني عليه هو أن أسمى القيم في مجتمعنا العربي هي القدرة على حياة دينية فاضلة. وبالنسة لنا نحن جنس النساء، طاعة الزوج هي واجب خلقي وديني يستحث المرأة للميل الى سوية الأخلاق والمعاملة الحسنة في جميع الأمور. ولكن المرأة الذكية عندها من السلاح الطبيعي ما يسخّر أقوى رجل لطاعتها. أستعملي عقلك وتغنجي وتدللي عليه أن ذلك يروق للرجل كثيرا. مرري يدك على وجهه بلطف أن لمسة يدّ المرأة بالنسبة للرجل سحر مهدئ. وقت العناق ربتي بلاطفة على ظهره وسمعيه كلاما حلوا. أحتضنيه بين ذراعيك، دعيه يشعر أنك سعيدة بقربه...."

أما أم نادر التي أطلعها أبنها على ما حدث ليلة الدخلة وأذاعته في البلد، كانت تتمنى على ابنها أن يُطلق هذه 'البنت الشاذة' وأن لا يُضيع وقته سدى معها. كانت كلما إجتمعت بأبنها، شكّت أم نادر له من عقوق زوجته 'القوية' التي طيلة النهار هي وأمها تتشاوران وتعملان الحُجب والسحر ولا تسمحان لها بزيارة بيت أبنها. تمتدحه وتثني على مزاياه وكلها في نظرها حميدة ثم تقول وتكاد الدموع الكاذبة تهطل على خديها، "الكنة التي لا تحترم حماتها يعني لا تحترم زوجها. لماذا تقبل بهكذا أمرأة زوجة لك. قل ليّ وأني أخطب لك بنت أكبر من كان في البلد، ياحبيبي. هل كُتبت لك وداد في ليلة القدر؟ طلقها وريح نفسك منها...."

لكن نادر الذي خاب ظنه في زوجته، بقي واثق ان وداد أمرأة شريفة ومخلصة بطريقتها الغريبة. لذلك خرج عن طاعة كلام أمه وأخذ برأي أبيه الذي نصحه بالصبر وقال، "بعدما تحمل وداد وتخلف سترضخ لك من أجل صالح خلّفها.... ."

تدريجيا، خلال الأيام التي تبعت ليلة الدخلة، بدأ نادر يفكر بأمر زواجه بشكل منطقي فأنتهى به التفكير الى ان زوجته لا تكره هو كشخص، إنما هي أكثر من خائفة من وصالهما على السرير وأنها تكره الفكرة كليا. فإذا هو أرتدفها كانت تخنع وتسكت ليس عن رضا أو أستسلام للمتعة، ولكن ربما لئن أمها قد فهمتها أن من حق زوجها أن يفتعل بها متى شاء وأن واجبها كزوجة مطيعة أن لا تمنعه عن نفسها أو تحتج عليه. كان نادر يسمع سكسكة أسنان وداد ويشعر بتجمد جسدها تحت جسده. كان أمرٌ بديهيا أذن أن عدم إستمتاع زوجته بقربه قد أذى غروره كرجل فأخذ يشعر أن لابد أن هناك شئ من النقص في ذكورته أو في طريقة مضاجعتها. حاول نادر التغير في طرق أخذها علّه يجد طريقة ما تحلو لها. فكر الزوج أن القدرة الهائلة للكلام الجميل ويقصد به ذاك الذي يستهوي الحواس والأهواء والشهوات ورغبة المرء الفطرية في المتعة، به فائدة اكثر من إتهواء العقل والرغبة في المعرفة التي لها تأثير في السلوك الإنساني ربما صعب على وداد فهمه. وعلى ذلك قدر نادر أن النهوض بأثار التصرفات الحميدة تحول دون إحداث آثارا ضارة وهكذا يصبح في وسعه مساعدة وداد أن تتأقلم مع وضعها الجديد كزوجة عليها واجبات ولها حقوق من أجل الحياة بطريقة عقلانية، تطهر النفس من الإنفعالات وتخفف من حدتها وسيساعدها تقبلها الخضوع للدين . فجأة لاحظت وداد أن زوجها صار يعاملها كما يعامل

العشيق معشوقته. صار يهمس في أذنها عن حبه لها وعن غرامه العنيف وعما سيفعلان في الأيام الحلو الأتية غير أنها لم تفهم ما خلف الكلمات السُكرية فلم تتجاوب مع ما بدى لها وشوشة وضجة في أذنها تركتها وكأنها فاقدة الوعي.

ولما فشل نادر في إثارة أنوثة زوجته، لفترة فكر أنه كان يمارس الحب ليس مع امرأة بل مع ألة إستمناء. أغضبه ذلك الإستنباط كثيرا وحطّ من قدره في منظور نفسه وأهان رجولته. بعد فترة التجارب الفاشلة صارت تتفجر بينهما مشاجرات حادة بسبب او بدون سبب لعدم تجاوبها معه. لم يمضي وقت طويل قبل أن بدأ نادر يحتقر زوجته وصار يمد يده عليها ويضربها ضربا مبرحا، ويضحك عليها وعلى ما بدى له بطئـها في الدفاع عن نفسها. آحيانا وهو يسخر منها، صار ينزل يده من قبة بلوزتها الى ظهرها حتى تصل رؤوس أصابعه مقعدتها من تحت بنطلون الكابوي فيقرص عجيزتها بشدة ثم يسحب يده الى احد ثدييها فيمسك به ويشد عليه ويهرسه حتى يوجعها وهو يقول بغضب وإحتقار، "لماذا تحملين هذا؟ أتظنين أنك امرأة؟ أنك عاقر وماحلة من كل أحاسيس النساء. ستبقي كل حياتك قاحطة كالصحراء...."

لبشعة أشهر، كانت كبرياء نادر جريحة فأصابه شئ كالمرض و صارت تأخذه لذة غريبة كالحمى في إيذاءها. كان يهجم على زوجته أينما وجدها ومهما كانت تفعل حتى وهي في دورتها الشهرية. ولأهانتها أكثر إذا ما تجرأت وحاولت أن تدفعه عنها، حلّ نادر زنار بنطلونه وأنزله حتى رسغا قدميه ثم أغتصبها حيث وجدها، تغسل الغسيل في لقن بالحمام أو تطبخ على الغاز في المطبخ او منحنية تمسح بلاط الدار. كان على وداد أن لا تتحرك أو تبكي أو تنبذ ببنت شفة حتى يقضي زوجها وطره منها ثم يقف وهو يمسح نفسه بهُدب ثوب شغلها. لقد وصل شجارهما حدته عندما تخلافا ظهيرة يوم جمعة وكانا ينضفان حديقة بيتهما. وأصوات المؤذنون والخطباء تُرفع من سمعات الجوامع وتشوش على بعضها، بعد مناقرة قصيرة، كالعادة فقد نادر وعيه وصار يضرب زوجته علنا. تحت أنظار الجيران والمارة الذين كانوا في سبيلهم الى الصلاة، أخذ نادر يصفع خديّ وداد بعنف بكفا يديه ويبزق في وجهها. كان الكل يراقبهما بفزع ولكن لم يتدخل احد وحاول إنقاذ المرأة من قبضة بُرثُن غضب زوجها حتى هوت الى الأرض فأرتمى فوقها وأغتصابها من وراء سور بيتهما.

بعد تلك الأهانة العلنية فقدت وداد السيطرة على نفسها وأصبحت بدورها نهبا للمزاج السئ والغضب السريع وثورة الأعصاب. توقفت عن أداء الصلاة وفقدت الرغبة في التأمل والهروب على درب عرفات والأمل بأن شيئا رائعا سيحدث لها قريبا. كانت لها مكامن ضعفها التي حاولت يوما أخفأها حتى تخطتها وتمكنت وداد بذلك تقريبا من تحمّل الألم الجسدي. لكن تلك الرغبة الغامضة بالموت أستمرت تستحوذ على جميع أحاسيسها حتى أنها وجدت نفسها قد فقدت الرغبة في النهوض في الصباح بضريعة أن ستائر الليل لازالت مسدله وشعرت أن نسيجها من الأسمنت المسلح. فإذا نهضت بعد اصرار حقيقة وضعها الجديد كزوجة عليها واجبات، أمضت وداد النهار مطأطاة الرأس وحالها هي حال من لا ينتظر شئ. لمدت طويلة أعتادت على هذا اللاشئ كمسكن.

كانت وداد تتجنب أثارة غضب نادر وكان هو يتعمد إيذائها ليفرغ عن مشاعره المكبوتة فيسلمها الى الجحيم ناعتا إيها بالنعوت الأشدّ أذى والأدهى بالبرودة الجنسية وبأنها ليست أمراة. كان ينبغي عليها أن لاّ ترد والإ أستدرجته الى مشاجرة كلامية لاتحمد عقباها. كان نادر يريد الأنتقام وأن يجرحها بأنوثتها هو يعلم كم هي فخورة بذلك فهي لم تحط له او لأي رجلا درجة. اراد نادر ان يصيبها في الموقع الموجع، فتابع طوفانا من الشتائم طوال النهار والليل حتى انهارت وداد وصارت تجهش بالبكاء لشدة خجلها من نفسها ولشدة تعبها وسخطها على الكون الذي سبب لها هذه التعاسة. في الحقيقة كانت وداد تشعر بالذنب الكبير لئنها أتعقدت أنها خدعت

نادر ثم أخذت تشعر أنه في الواقع كان أكثر هشاشة منها بكثير. صارت وداد تحاول على أثر كل شجار أن تلجم لسانها فنادر زوجها وهو الرجل الذي أنقذها من دون علمه من حياة العنس والكأبة التي عاشتها في بي أبيها، حسب رأي أمها .

لما وصل زواجهما الى هذا الحد من العذاب، صارت أفكار وداد سوداوية وفكرت بالأنتحار برمي نفسها تحت باص او بقطع شرايين رسغيها للتخلص من حياتها المؤلمة التي بدت لها بلا نهاية. فكرة الحبل من نادر المتوحش الظالم أغثتها الى أبعد الحدود، فوعدت نفسها أنها لن تسمح لنفسها أن تحمل وصارت تأخذ حبوب منع الحبل. وهي غارقة في يمّ التعاسة ذلك وكأنها تعيش في جحيم خانق، بدأت وداد تلاحظ تغيرا ملموسا في طريقة معاملة زوجها لها فأبطلت التفكير بالأنتحار وأكتفت بالأستمرار بأخذ حبوب منع الحبل أنتقاما منه.

في الواقع ندم نادر جدا على ما بدى منه من تصرف همجي ووحشية في الحديقة أمام الجيران والناس الذهابة الى صلاة الجمعة وصار يفكر بسطحية المجتمع العربي إذا واجه امراً أخلاقيا. كان نادر يؤمن أنه رجل صالح قام بعمل سيئا قد يؤثر في إفساد أخلاق الناس من حوله ولذلك كان واجب على واحد ما أن يتدخل لإيقافه عند حده. الحقيقة التي وصل اليها بعد تفكير عميق هي انه يمكن ان يساء فهم العمل الغير أخلاقي مثلما حدث معه وصار يلاحظ جفاف الجيران صوبه والبعد عنه إذا ما حاول من باب الجيرة أن يقف ليتكلم معهم. لفترة ليست قصيرة ولا واحد منهم حيّاه أو ألقى السلام عليه.

وفي الشهر السادس من زوجهما وفي يوم أحد وهما يتناولان الفطور شعرت وداد أن كل شئ بدأ يتغير. كان زوجها في مزاج سمح فلاطفها وتحدث معها وقبل أن يذهب الى الشغل وضع قبلة رقيقة على خدها. بعد ان انهت وداد شغل البيت فكرت كيف تتجاوب مع أسلوبه الجديد فقررت، "ربما في المساء ونحن وحدنا نتفرج على التلفزيون أقترب منه والمس يده وأحادثه وأشرح له حبي." لكن ذلك بقي فكرة في رأسها الزاخر بالأفكار فنادر أمضى السهرة خارح البيت وعاد متأخر وسكران.

خلال فترة الهدنة تلك، وكأنه يدافع عن كبرياء رجولته، قرر نادر ان زوجته فاترة العاطفة وباردة جنسيا فصارح نفسه، "أي نوع من الرجال أنا لأسمح لنفسي أن تهوي بهذا القدر فأستمني داخل تلك الثلاجة؟" ولما دخل الشك رأسه تسائل، "لا أدري! هل وداد وافقت ورغمة على الزواج مني حين تقدمت الى أهلها لطلب يدها؟" وهو وحده في 'ضوء القمر' بدأ يحلل الأمر وأقنع نفسه بأنها الآن زوجته ولن يستطيع أن يغير ذلك فأفضل أن يتعايش معها كما هي. كان نادر قد كان قد سمع بالنسوة العنيدة وكيف أنهن لا يرضخن لرجل لذلك أثر التسامح معها وأستقر الأمر به وبها وقرر، "بعد الذي مرّ بيننا من شجار وعنف، ستحتاج وداد الى وقت أطول قبل أن تقبلني كزوج." عاد نادر الى البحث عن النسوة 'السهلات' من بين زبوناته لسدّ حاجة رغبته الغريزية.

بعد فترة لاحظت وداد أن نادر لم يعد يقترب منها وأكثر الليالي كان يرجع متأخرا من سهره وغالبا ما يكون سكران. كأن دائما يجدها صاحية أمام التلفزيون فيلقي عليها التحية ثم يذهب الى سريره وينام. بعد فترة من الزمن على هذا الموال، بدأت وداد تعتقد أن زوجها لابد وأنه يأخذ ما يريد من نسوة أخريات وربما حتى مع امرأة معينة. لم تشعر وداد بالغيرة على العكس أحست أن وزنا ثقيلا قد نزل عن ظهرها وأرتاحت نفسا لهذا الأستنباط.

هكذا أستقر زواجهما الى روتين يومي لا وجود للعنف ولا مكان للحب فيه وقبل كلهما بالوضع الجديد. كانت وداد كعهدها في بيت أبيها صموت وهادئة ليس بالسهل عليها أن تشارك أحدا بما كان يدور في رأسها ولم ترتمي يوما بأندفاع الى صدر زوجها. في علاقتهما فوق السرير كان نادر دائما هو الذي يبدأ وهو الذي ينهي الأمر. أخير صارت وداد تسلم جسدها بلا

بجهة أو تبرم مسموع لنادر بينما كان هو يضاجعها كأمر طبيعي يمارسه بحكم العادة والأحتياج. لم تشتعل بينهما نيران الغرام ولم يصل أي منهما حدود النشوة. كانت وداد تسمح له بقدر محدود وكأنها قد حسبته مسبقا وأقتنعت أنه حق زوجها الشرعي عليها لا أكثر ولا أقل. لكن نادر كان يوما ما يحلم بعشق عنيف يدفعه الى التلاشي بالغير فجعله الرضى بالمقدر الموجود أمامه في عطش دائم الي حبيبة تأخذ منه كما يأخذ منها من كل نفسها. لقد وضعه خمول وداد في حالة شك؛ هي تعطي بربع طاقتها والباقي تبقيه لمن؟ فكر كما يفكر كل رجل، "أهناك حبيبا لم تحظى به؟ لقد سمعتها تقول وهي تعتقد أنها وحدها بالغرفة، لا راد لقضاء الله.... "

في السنة التالية ظلت وداد امرأة غامضة بالنسة بنادر، مغلقة على ذاتها تعمل المطلوب منها وكفي. كانت دقيقة في كل شئ تعمله كي لا تظهر الخطأ، أي خطأ قد يستدعي العتاب او اللوم ويفتح الباب لزوجها لينتقدها أو ليسخر منها. في السرير كانت تمنحه جسدها دون تبرم ظاهر ولم تبدي أي أمتعاض واضح حتى ينتهي ويدير ظهره لها فتتستر على نفسها وتغادر الفراش لتمضي الليل في وساوس وهي ساهدة في شبه الظلمة ويأتيها النوم خطفا دون عمق. في الواقع بدأ نادر يستغرب غموض زوجته وأخذ يحاول بشتى الطرق ان يجد حلًا له كي يفهما فلم يفلح. كان يزعجه قلة بوحها بما يملئ رأسها من وساوس وأوهام حتى أهتدى الى الحقيقة أنها هي كذلك لا تفهم سبب غموض نفسها. لبعض الوقت أمتلأت حياة وداد بحاجات زوجها ولكنها ظلت مظللة بخيمة سوداء في هجير الحياة المرهق. أما بالنسة لنادر فقد فاح عطر زوجته الراكز في أفناء بيته وفي ملابسه ولم يفكر بامرأة أخرى تحل مكانها رغم إلحاح أمه أن تجد له عروسا تستحقه.

عدى أمها لم يكن لوداد أية صديقات او حتى صديقة واحدة تتحدث معها وتساعدها على فهم الحياة، لذلك في الأشهر الأولى من زواجها كانت حياتها تعيسة وحزينة مفعمة بالقلق والأرق وقل أن نامت حتى ساعة متأخرة من الليل. كانت من طبيعة وداد النفور من تجمعات النسوة الى حدّ الغثيان؛ فإذا ذهبت الى مناسبة، مثل زواج او جنازة، كانت تشعر أنها في بلد غريب لا تفهم لغته.

وعندما هدأت شؤون بيتها وصار هناك شي من الروتين في حياتها اليومية، لتحد من الفراغ والضجر، سألت زوجها أن يحضر لها أية خياطة يحتاجها المحل. قالت له، "أفضل من أن ندفع لخيّاط هي آني طيلة النهار وقتي فراغ. لماذا لا نوفر على أنفسنا أجرة الخياطة وأقوم أنا بأجراء أية تغيرات تتطلبه الزبونة"

أستحسن نادر الفكرة وكان على علم مسبق بمهارتها في إستعمال الأبرة والخيط فصار يأتى لها بالفساتين وشغل الخياطة من المحل الى البيت. في نهاية العام الثاني من زواجها، ولم يتبقي من تلك الأيام العاصفة غير ذكراها، حملت وداد ماكنتها وذهبت الى 'ضؤ القمر' كما سبق الذكر. طبعا أحتج نادر وفكر أن وجودها سيفسد عليه البحث عن النسوة 'السهلات'. لكن وداد أصرت بحجة أن وجودها في المحل سيأهبها لتقوم باية تغيرات تتطلبها الزبونة حالا فلا تخرج الإ وفستانها على مقاسها وهكذا ينافس 'ضؤ القمر' أي محل أخر في شارع السينما. ولما شعرت أنها قادرة على إدارة المحل بنفسها، صارت تقترح عليه أن يخرج وهي تبقى 'فالشغل اليوم بطئ'. لتشجعه كانت تقول وكأن أمر سعادته يهمها جدا، "ياعزيزي يبدو الضجر والملل عليك واضحا. لماذا لا تذهب الى القهوة وتجالس أصحابك ساعة من الزمن؟ لا تخف على المحل آني هنا ولن أغادر قبل أن ترجع...."

بعد تردد طبيعي، بدأ نادر يوافق زوجته الرأي وبدل أن يطلب الشاي او القهوة الى المحل صار يخرج لإحتسائها في المقهى. في البداية كان لا يغيب أكثر من ساعة وعندما يعود كان يعتقد أنهه سيجد الشغل رأس على عقب لكنه بعد أن يتجول في أرجاء المحل يجد كل شئ كما كان

يأمل. تدريجيا صارت غيباته تطول أكثر فأكثر فقد تكونت حوله شلّة من الأصحاب يلعبون الورق والطاولة حتى أصبحت وداد هي المسؤلة عن 'ضؤ القمر'. فكرة امرأة تدير دكانا بنفسها كانت مستجدة على مجتمع أربد الذكوري آنذاك، فثار نقاش حاد بين الناس بعضهم مع الفكرة التقديمة وأغلبهم ضدّها. غير أن وداد لم تكترث بالشائعات التي وصمتها بشتى الأسماء القذرة وأستمرت في العمل وكانت في ذلك رائدية. بسبب وجودها كانت النسوة تأم 'ضؤ القمر' فتحسن الشغل بأضطراد مستمر تحت إدارتها وإزداد الربح أكثر. ولما تغيرت الضروف المعاشية في البلد وصار أمر عاديا أن تخرج المرأة للعمل، أغلب محلات النوفتية النسائيه إستوضفت بائعات.

في السنة الثالة، أقترحت وداد على نادر أن يشتروا سيارة فحسابهم بالنبك كان فوق الجيد، ففعل. اولا بحجة الكشف على البضاعة قبل وصولها الى أربد، صار نادر يسافر الى عمان او الى دمشق ويعود في نفس اليوم وغالبا ما عاد الى البيت سكرانا والوقت متأخر. لم تسأله وداد عما فعل ولا عن الذي أخره. ولما سافر أخوه سامر وأصحاب له الى بوخارست عاصمة بلاد رومانيا، رافقهم. كانت رحلتهم في المقام الأول الى حانات الخمر ودور الدعارة. أستلذ نادر بالمشوار وغاب أسبوعا بأكمله ولما عاد كان شغل 'ضؤ القمر' على أتم مايرام. بعد ذلك صار أمر شبه عادي أن يبيت نادر ليلة او ليلتان خارج داره في زيارات شبه أسبوعية الى عمان ودمشق. ولما سافر مع أخيه سامر الى أستنابول أمضيا أسبوعين يتمتعان بالغواني الروسيات والأوربيات. لرخس ولجودة البضاعة في تركيا، صار نادر وأخوه يذهبان اليها بأستمرار فيجمعا بين اللذة الجسدية وعقد صفقات شراء أغراضا ل'ضؤ القمر'. في السنة الخامسة وكانت زوجته حامل بعلي وكان فرح زوجها لذلك كبير، بدبلماسية أستغلت وداد المناسبة السعيدة وإقتراحت على زوجها أن يسجل أسمها شريكة له في حساب المحل في البنك كي لا يتأثر الشغل أثناء غيباته الكثيرة والمتكررة. إستحسن نادر الفكرة ووافق عليها مباشرة كي يغيب متى وكيف كان يحلو له. بين الآونة والآونة صارت وداد تسحب مبالغ صغيرة من حساب 'ضؤ القمر' وتحولها الى حسابها الخاص وهي تقول لنفسها، "هذا أجرة يدي. هذا نادر مسافر على طول وآني بشتغل ليل نهار. يعني آني أقل من العامل!"

وهكذا شهر بعد شهر، تراكمت مدخرات وداد حتى عدت الألوف.

٩

بعد أن تناولت العائلة طعام الغداء، تركت وداد زوجها وأبنهما علي بالبيت يغطان في ضجعَة الظهيرة، وسبقتهما الى 'ضؤ القمر'. كان اليوم يوم أربعاء الواقع في الرابع عشر من شهر تموز من أخر عام في القرن العشرين، وكانت الساعة بعد الثالثة بخمس دقائق، عزّ القيلولة، عندما أوصلت التكسي وداد الى باب المحل. هكذا دونت صواري في كتاب مذكراتها قبل ان تنام بعد أول لقاء لها وجه لوجه بوداد وكتبت تحته 'أهم يوم في حياتي'. وهي تفتح باب المحل، لاحظت وداد الى يسارها وجود صبية ممشوقة القوام تقف قلقة أمام نافذة الدكان المجاور وهُيأ إليها أنها قد رأتها من قبل ولكن لم تذكر متى. لسبب مبهم راقت الصبية لوداد فشعرت برعشة خفيفة تغمرها دامت بضع من الثانية وهي تلقى نظرة إعجاب متمعنة على الفتاة العابرة من أعلى رأسها الى أخماس قدميها.

أختفت عينا صواري خلف نظارة شمسية داكنة ذات إطار سميك أسود كما كانت محجبة على طريقة طالبات جامعة اليرموك ومن تحت غطاء رأسها الأزرق قد جعلت شعرها ذيل حصان.

بالرغم من أن وداد كانت قد أهتزت بتلك الرعشة الخفيفة المبهمة التي كانت تصيبها

آحيانا أذا ما شاهدت فتاة حلّيت لها، خارجيا لم تعرّ الفتاة الغريبة أنتباها طويلا. لم تستطع وداد مثلا أن تخمن عمر الصبية ولا ما كان يخبو في عينيّها من أنفعالات خلف تلك النظارة السوداء. لكن لو أن وداد فكرت بعمق بالأحاسيس التي شعرت بها، لعلمت أن نظرتها لم تكن عابرة كما تخيلت. خلال الثانية التي راقبت وداد فيها وجود الفتاة أمامها لاشعوريا خلي دماغها من كل شئ وحازت على كامل إنتباهها. ولكن لكثرة الأفكار التي كانت تجوب في رأسها حينئذ لم يطفو شعورها الباطني الى قمة أفكارها فتجاهلت الصبية ودخلت محلها. حالما باشرت وداد الشغل غابت صورة صواري عن ذهنها. بنشاط وهمة غرقت صاحبة المحل بالعمل وهي تدندن لنفسها أغينة قديمة لأسمهان كانت قد سمعتها في مذياع التكسي الذي أحظرها وعلقت بفكرها.

لشدة عجلته ليغادر المحل ويذهب الى الدار ليهرب من حرّ السوق ويتغدى ويلاعب أبنه علي ثم ينعم بضجعة القيلولة، كان نادر قد ترك كل شئ في فوضى كالعادة. رفعت وداد الفساتين المكومة على الطاولة والكراسي ثم وضعتها في علاقاتها ورتبتها حسب نظام هي صممته وتعرفه عن ظهر قلب. بعد بضعة دقائق أعادت وداد كل شئ الى مكانه ثم كنست البلاط ومسحته بالمقشطة. ولما تأكدت أن كل شئ قد عاد الى ما كانت تريد، وقفت وداد على عتبة باب المحل وأنتظرت لكي يراها نادل المقهى الذي في الزقاق المقابل. ولما رأها النادل وكان رجلا مصريا نشيطا وخفيف الهمة يعرف أسماء كل أصحاب المحلات الذين يطلبون المرطبات من مقهاه، نادى وهو يحمل صينية عليها كؤوس شاي فارغة ويعلم ما ستطلبه، "عصير بادر يا ستّ أم علي!"

فردت وداد بصوت سُوّقي، "لو سمحت يا أبو محمود وخليه مثلج...."

فاجاب النادل، "حاضر من عينيّ."

قبل أن تستدير وداد وتدخل المحل، مرت من أمامها صوراي. كان شبح ابتسامة رقيقة على شفتهيا عندما قالت بصوت أجش ومرتعش، "السلام عليكم. . ."

ردت وداد علي التحية ولكن لم تلاحظ أن وجتنا الفتاة كانتا قد أكتسبا لونا زهريا متقدا لشدة كسوفها ولثقل مهمة إلقاء التحية. لقد أتت صواري هذا اليوم وهي تخطط لقاء صاحبة المحل وليس فقط لإلقاء النظر عليها ن بعيد كما كانت تفعل منذ ما يقارب الشهرين. لهنيهة أتعقدت وداد أن الطالبة الجامعية ستقف وتبدأ حواراً معها غير أنها أستمرت بالمشي بخطا مترددة ووقفت أمام نافذة شباك المحل المجاور الى يسار 'ضؤ القمر' وبدت وكأنها تتفرج على البضاعة المعروضة فيه. التفت وداد بفضول متزايد صوبها فلاحظت انها قد تصنّمت في مكانها وبدت وكأنها تتنفس بصعوبة. بنظراتها الثاقبة التي ميزت الأشياء كما هي أصلا، لبضعة ثواني تابعت وداد البنت وحركاتها فرأتها كحزمة ضؤ غير مرئي متنحي في الأماكن المنزوية. كان جمال الفتاة أخاذ وهي أقصر وأصغر سنا منها بكثير. أرتدت صواري قميصا أبيض مطرز على نمط نساء الطفيلة ذو كمّ يكشف عن نصف ساعديها ويصل طوله الى ما فوق ركبتيها. من تحته كانت تلبس بنطلون أسود وحذاء رياضة وظهرها مشبح بشنطة حمراء، خمنت وداد أن لابد بها كتبها.

بينما كانت الفتاة على علم ودرايه بالأسرار التى تجمعها بصاحبة المحل، صارت وداد تتحزر بصوت مكتوم، "لابد أنها تنتظر أحدا ما!" ثم تسألت في نفسها، "وهل أحد غير مضطر يخرج من بيته في مثل هذا الساعة الحارقة؟ ياترى بمن تنتظر؟" ولما أختفت في جوف المحل اضافت بنوع من السخرية الهازرة، "منّ؟ أهو في غير الحبيب الذي لوع قلبها؟ هكذا شباب العرب بعد أن يضحك على البنت يتخلى عنها...."

بعد قليل أتى أبو محمود، نادل المقهى، بكأس عصير كوكتيل طويل مثلج على صينية المنيوم ووضعه على زجاج ضهر المنضد ثم لمّ الكؤوس الفارغة وتناول الثمن من وداد وخرج دون أن ينبذ ببنت شفة. لتكون في مجرى نسيم المروحة الكهربائية الشغّالة، جلست وداد قبالتها في معبر المحل على الكرسي الأسود ذو الظهر العالي. أخذت سيجارة من باكيت الخان وضعتها

على جانب وصارت تحاول إشعالها بعود ثقاب ولكن تكرر إطفاؤه من أثر الهواء الذي تدفعه المروحة. ولما أخيرا نجحت في إشعال سيجارتها مصّت عليها بنهم ثم بدأت تتصفح الجريدة والهواء الذي تحركه المروحة يهب عليها ويلطف من الجو الخانق. بين كل فترة وأخرى كانت وداد تمصّ على سيجارتها ثم ترشف من كأس العصير. ولما رفعت عيناها عن الجريدة رأت الفتاة الجامعية تمشي ببطء على الرصيف أمام باب 'ضوء القمر' وهيئ لها أن عينيها من خلف عدستي النظارة تحدقان بها. فجأة أتسعت عينا وداد حتى شعرت أنها ترى الكون كله وغرست بناظريها في أعماق الفتاة العابرة وفهمت الأشارة الباهتة التى كانت ترسلها لها، فأهتزت بزلزال جنسي عنيف قصف بها من قمة رأسها الى أدني قدميها. لاأراديا أخذت وداد ترتجف بشعورغريزي عميق وشعرت بحرارة جسدها ترتفع والحمّ يلسع خديها. أن العين الناظرة في مثل هذا الوضع المتكامل جنسيا هي التي تعبر عن كنه الذات بينما العقل يبقي في شبه خدور لئن وجدانية الناظر وعاطفتة تنظران من أفق رحب. لذلك، وأن لم يكن هذا الشعورالغريب جديدا عليها بالضبط، لم تحسّ وداد بمثله من قبل يضربها بهذه الشدة وبهذا الوضوح الغريزي. بعينان جائعتان التهمت وداد الفتاة المكسوفة التي كانت تمر من أمامها بكاملها وبدأت تحسّ أنها هي المقصودة من وجود البنت الغريبة. أخيرا تمكنت وداد من التحكم في مشاعرها المهتزة فمصّت على سيجارتها ثم رشفت من كأس العصير وأعادت عيناه الى الجريدة ولكن أبقت عين على الباب لتراقب عن كثب الذي ستفعله الفتاة العابرة.

غير واثقة تماما من نوع الأستقبال الذي ستلقاه من صاحبة المحل، شعرت صواري بالخجل والخوف من الفشل وكادت شجاعتها التي اتت بها هذا النهار بالذات الى باب 'ضوء القمر' ان تنهار. أمتلكت صواري خيالا قويا يعبر عن ذاتيته بالمظهر المدهش في الأشياء وفي الأفكار ويؤكد على أهمية التعاطف الذي ينفذ منها الى كيان الشخص المنظور، فإذا كان يفكر على نفس الموجة ينغمس في ذات المشاعر التي تعبر وجدانه ويحسّ بها إحساسا شاملا. لذلك لما رأت صواري وداد لأول مرة بإحساس فطري قوي نفذت به الى كيانها فتبعتها عن بعد حتى رأتها تدخل 'ضوء القمر' فأستنتجت أنها تشتغل فيه وبعد وقت فهمت أنها صاحبته.

في مثل وضع وداد وصواري السرّي العميق والخاص، عادة تقوم المعرفة الشخصية على دراسة آنية للتصرف بشكل عام وخاصة في إحساس المراقب للشخص المنظور. فإذا أنتبه المنظور وتمكن من تحديد معالم الناظر الفرديه، مثل النظرة العميقة ومقدرتها على توصيل الأفكار والأحاسيس بقوة وبصدق بينهما كان هناك إتصال واعي بينهما. لذلك بواقعية أكثر شفافية مما هي عليه في حياتهما اليومية كانت أجابة وداد أستجابية وموجبة ففهمت كنه الموضوع الذي يربطها بهذه الفتاة العابرة قبل أن تتلقي بها. لذلك لما رأت صواري وداد لأول مرة لم تهتم بجوانب تصرفها الغريب الشكل، فقد كانت سُوّقية تقف تقريبا عند باب كل محل تمر من أمامه وتتحدث وتجامل الناس بأسلوب مهذب وبمهارة إجتماعية وبدقة في قول ما تريد قوله. ولما صدف لهنيهة وجاءت عينا وداد في عيني صواري من دون أن تنبض إي منهما ببنت شفة كانت صواري واثقة ثقة أكيدة أن المرأة قد فهمت ما ترسله العيون من أسئلة وأجوبة وأن النظرة في تلك اللحظة قد عبرت عن مشاعرهما بصورة عفوية وبدون الحاجة الى إعادت الصيغة الشكلية للسؤال والتفاهم بالكلام. كانت بهجة صواري فائقة الوصف فهذه هي المرة الوحيدة التي متعتها النظرة العابرة ووجدت من خلالها هذه الصورة العفوية لما كانت تبحث عنه من سنين. ينبغي القول أن صواري المتبصرة في الموضوع السرّي والخاص تناول تعبيرها حقيقة من حقائق الحياة بتقنية وخيالية. وهكذا ولدت عند صواري معضلة كيفية التعارف بينهما وتوصيل المشاعر والفكرة الأصلية الى المرأة البائعة. صارت صواري بعد ذلك تأتي في وقت القيلولة الى شارع السينما كلما سمحت لها ظروفها الدراسية. في البداية كانت تمشي على الرصيف المقابل ل'ضوء

القمر' وتنظر من بعيد صوب المرأة التي عادة تكون جالسة قبل أن تتشجع وتعبر من أمام المحل. وفي هذا اليوم بالذات قررت صواري انها ستضع ظنونها تحت المجهر وتدخل المحل.

لما رفعت وداد رأسها مرة ثانية لترى لمن كانت رائحة العطر اللذيذة التي هفّت في أنفها، فجأة أخذ قلبها يتقلى في صدرها وصارت تمسع ضرباته تدوي في أذنيّها. لا شعوريا بدأت أطرافها ترتجف بشدة غريبة فلم تتمكن من الوقوف مباشرة فقد كانت البنت الخجول والورد يزهو على وجنتيها لمجرد القرب منها تقف أمامها وعينيها مخفيتان خلف عدستي النظارة السوداوين. أول شئ لاحظته وداد أن الفتاة كانت وجلة ومترددة وأن وجهها كان شديد الإحمرار لشدة خجلها رغم جرأتها التي قادتها الى 'ضوء القمر'. وحين تمكنت وداد من ضبط أرتعاش أطرافها أستندت واقفة وكان وجهها بشحوب الموت، فقد هرب جميع الدم منه. ولفترة غير قليلة بقيت المرأتان هكذا وجه لوجه وفي خاطر كلاهما نفس الفكرة تدور، "ما أجمل هذا الوجه وهذه العينان؟ كيف يشع ضوؤهما في هذا المكان الباكي؟ أنني لم أرى مثلهما في حياتي. كم من طيبة رقيقة وحانية في هاتين العينين، لا ردع فيهما ولا زجر، فقط حب وأستجابة.... ."

وداد تنظر الى أسفل وصواري تنظر الى أعلى وعيونهما تتكلم وتفصح عن كل شئ دون أن تحاول أي منهما النطق ولو ببنت شفة واحدة، فكل شي بدى وأضحا ومفهوما لهما ولم تكن هناك أية حاجة لإستعمال الكلام لشرحه.

لقد بدى لوداد أن الوجه الشاب الشاحب موزين بمسحة خفيفة من مساحيق التجميل جعلته بريئا وجميلا. اما شبح الحمرة الزهرية على شفتي الصبية المرتجفتين فكانت مغرية. لكن الشئ الغريب هو أن وداد لم تتذكر تماما أين رأت صواري ذات النهدان الذين اشرفا وأكعبا والعينان السودتان ورأسيّ خديّها غمّازتان تبرزان كلما أبتسمت أو ضحكت.

وأخيراً لما هدأت شكوك وداد أيقضها الصوت الصغير الذي تكلم في رأسها، "لابد أنها زبونة قد أتت المحل يوما ما!"

عادة كانت وداد تتجنب تفاصيل الجمال عند زائرات 'ضوء القمر' ولكنها عندما رأت صواري أمامها مباشرة أعجبت بتجسدها السحر والرشاقة الفاتنة والأناقة الخالية من الأبتذال في كسمها الجميل. الآن ولم يعد أرتداء البنت بنطلون شئ مثير للكلام ويسئ لسمعة البنت، لم تجهد وداد في أظهار جمالها كأنثى فقد كانت ملابسها دائما عملية وفي غاية البساطة وخليت من عناصر التأنق والرشاقة المفرطة التي تتحكم بمعظم بنات حواء لذلك بدت أناقة صواري أكثر ضخامة وأعطتها عنصر القوة الخفية فكان جمالها يعبر عن نشوة الحياة. بحس غرائزي راقبت وداد جسد صواري وهي تلتف وتنحني بحيوية تعكس مقدرتها الأدائية والرؤية العميقة للأنوثتها.

أزالت صواري النظارة عن عينيها ولفترة بدت طويلة لهما، حدقت كل منهما في وجه الأخرى تعصف بهما حرارة جنسية شديدة. أخيرا قالت صواري اللتى بدى أنها تعلم تماما السبب الذي أتى بها الى 'ضوء القمر، في صوت جافا وضعيفا، "السلام عليكم. . ."

بحركات مدروسة شبه إنضباطية وغير متسرعة كأنها تهدئ من روع نفسها وتخفي إرتجافها، صفطت وداد الجريدة بهدؤ بطيئ ووضعتها على ظهر المنضد الزجاجي. لشدة توتر أعصابها، سمعت وداد صدى أجابتها على تحية صواري في رأسها قبل أن ينطقها فوها. ولما أخيرا خرج الردّ لم تسمع نفسها وهي تقول، "أهلا وسهلا...." بينما كانت تتحرك بخطّاً بطيئة لتقف خلف المنضد وتأخذ دورها كبائعة وقالت وهي تحاول أن تجد صوتها وتضع أبتسامة طفيفة على شفتيها، "تفضلي يا أنسة!"

بعد أن تغلبت على الصعوبة الأولية وهي دخول المحل، بدي لصواري أن كل شيئا بعد ذلك سيكون سهلا. لقد دربت صواري نفسها على ما ستقول ويمكن ان يحدث او يقال في اللحظات الأولى من لقائهما. وضربات قلبها تتهدى قالت صواري بصوت شبه أجش، "أنني

أبحث عن فتسان صيفي خفيف ولكن لا يخايل...."

رغم كل إنضباطيتها وجديتها، صرفت وداد جهدها كبيرا لتهدئ أعصابها وتتصرف بشكل طبيعي ولكنها بقيت في شبه دوامة تحاول فكّ لغز قدوم الفتاة الى 'ضوء القمر' بهذا الوقت الفاضي من الزبائن. بخطا غير متزنه سارت وداد صوب جسر عُلقت عليه الفساتين ثم تسائلت، "هل الفستان لحضرتك، يا أنسة؟"

وهي تجاهد لتبدو طبيعية، قالت صواري مباشرة وفي صوتها نغمة دلال فقد بدى أن الأمور تسير كما كانت تتوقع، "أجل. . ." وتلك النظرة الواهجة التي كانت تلألأ في مقلتيها أضافت وهي تحاول أن تبدأ نوعا من الحوار مع البائعة، "ما رأيك، كيف يبدو الأحمر عليّ؟ أنه في رأيي أجمل الألوان.... ."

تميزت صواري بطابع عاطفي وإمتلكت خيالا مبدعا في الوصف لدرجة أنها أحيانا كانت تفضل خيالها على ما تري عينياها وتفكك ما تراه الى أجزاء تخلق من عناصرها المجمعة وفقا لإرادتها الذاتية أنسان أخر شبه واقعي. وأن بدت حركات صواري إنضباطية وزائدة الحساسية، غير أنها لم تكن مثل وداد التي كانت حقيقة تجهل ما ترغبه نفسها ولم تستطع يوما حتى في سرّها أن تصيغه بالكلام بينما كانت صواري التي كانت تصغُر وداد بعشرة سنوات تعلم عن ماذا تبحث وتعتقد أنها تعرف عند من النسوة قد تجده ولذلك كانت ودودة وإيجابية فيما تأمله.

رأت صواري وداد من خلف مرآة 'ضوء القمر' المستديرة وهي تذهب وتجئ بدقة وتواصل النظر اليها بعينيها الكبيرتان وكأنهما جمراتان متقدتان فأخذت تنظر اليها سرا فبدى لها أن كل شئ بينهما كان كالضوء واضح المعني . لكن وداد الجريئة شعرت ببعض الكسوف من النظرة العميقة التي تبادلتها مع الزبونة وإحتارت كيف تجيب على السؤال المباشر. غيرت أتجاه عينيها وبعد أن خمنت أن شيئا يغلي في صدرها، سارت بخطا أكثر ثبوتا على الأرض الى جسر ثياب أخر وقالت، "هذه الفساتين أخر تشكلية وصلتنا. أعتقد أن فيها عدة فساتين بمقاسك...."

لم تدع صواري المناسبة تمر من دون أن تستغل الأيحاء الى ما في خلدها، فقالت وعيناها تبتسم، "وما هو مقاسي، برأيك؟"

ولفترة كانت كلتاهما منغمسة تمثل دور المرأة المشغولة في البحث عن فستان مناسب من بين الفساتين المعلقة. طال وقت البحث عن فستان ملائم أكثر بكثير مما ينبغي وتلامست خلاله إياديهما عدت مرات كانت مثل نفط الكهرباء. تدريجيا هدأت أعصابهما وشعرتا بنوع من الهدؤ في صحبة بعضهما البعض وعاد اللون الطبيعي الى وجناتهما وأخذتا تتحدثان عن نوعية وموضة البضاعة التي كانتا تفحصان. أخيرا أختارت صواري فستانا أحمر رفعته عن جسر الثياب وصارت تتمعن فيها. وبعد فترة سكوت صعبة تسائلت صواري وفي عينيها إيمأة مغرية باسمة وداعية، "أيمكن أن أجرب هذا الفستان؟"

فهمت وداد ما كانت تومئ عينا الفتاة اليه وشعرت وجهها يحترق بنيران الغريزة الأساسية التي أسقطت أدم وحواء الى الأرض ليتقدا بلهب الحب وكانت أكثر من واثقة أنها ستستجيب للنداء. نهد ثديا وداد منتصبان وهي تشير بيدها صوب حجرة القياس، (نفس المكان الذي مارس نادر به الحب مع النسوة 'السهلات') وقالت ولسانها يتعثر بالكلام، "طبعا، تفضلي...."

أخذت صواري الفتسان على ذراعها وببطئ وهدؤ مقصودين مشت الى مؤخرة المحل وسحبت الستارة الثقلية عن باب حجرة القياس وقبل أن تدخل نظرت الى وداد وعندئذ صارت تظن أنها تنظر اليها لأول مرّة . في نفس تلك اللحظة أدركت وداد أنها هي كذلك كانت ترى صواري لأول مرّة فجلست على الكرسي لتهدء نفسها. أمسكت بسيجارة بين شفتيها ثم مالت لتشعلها من لهيب عود الثقاب مستظلا بكفها من الهواء الذي تحركه المروحة. أشتعلت السيجارة

ورشفت وداد دخانها بنهم. ولما رفعت عينيها كانت صواري لا تزال هناك ترمقها. ظل الحال على ذلك لبضعة ثواني وكأنها الأبدية لاتفعلان شئيا أكثر من هذا؛ تنظر كلاهما الى الآخرى.
وداد تنظر اليها من على الكرسي الذي جعلته يثبت على رجليه الخلفيتين أما صواري فهي واقفة تسند يدها الطويلة العارية على باب حجرة القياس بهدؤ وتنظر اليها. كانت أهدابها الطويلة مضاءة كما الشمس. عندما أستدارت كانت لاتزال تشعر بنظرت وداد الناعمة البراقة على كتفيها وخلف ظهرها ثم دخلت وهي تلقي نظرة أخيرة صوب وداد قبل أن تفرد الستارة على الباب.
على جمر الأنتظار الذي كان يصلي أوصالها شعرت وداد أن الدم صار يغلي في شرايينها. بدى لها وهي وتجلس على مقعدها على بعد مترات من غرفة القياس أن كل جسدها كان يتلوى مستعداً للقفز على سماع النداء. وأخيراً جاء الصوت اللطيف يقول بغنج ساحر، "لو سمحتى." يدعوها لدخول الجنة.

نهضت وداد عن مقعدها وسارت متجهة الى غرفة القياس التي بدت وكأنها بيعدة، أبعد بكثير مما تخيلت، فظلت تسير وهي تحمل السيجارة في يدها. ثم عمدت الى صحن على ظهر المنضد الزجاجي والقت عقب السيجارة به. بخطوات واسعة أسرعت وداد الى حجرة القياس وردت الستارة فرأت العينين الشغوفتين الرقراقتين ولكنها قبل أن تنطق بكلمة قامت بفرك وجهها للتأكد أن ما تراه هو حقيقة. وعندما طرفت صواري بعينيها لأول مرّة سألتها وداد بصوت هامس، "من تكون أنت؟ من أين جزء من السماء نزلتي؟"

قالت صواري وقد بان جزء من جسدها حتى الكتفين، "أنا أسمي صواري. وأنت؟"

قالت وداد وقد ظهرت في عينيها أبتسامة ندية، "آني وداد. وانت الملاك الذي هبط الى الأرض ليسعدني...."

ثم دنت من صواري ومدت يديّها فصارت بكامل جسدها بين ذراعيها. كانت صواري قد أزالت حجابها وفردت شعرها الطويل المتموج وخلعت فستانها فبدت لوداد أية في الكمال والجمال. واربد تغط في القيللوة، خفظت وداد ناظريها الى الوجه الفتي الذي سيبعث الحياة فيها بينما رفعت صواري وجهها الى أعلى لتمتع عينيها بتلك الوسامة والعنفوان الذي تمنت لو يحتويها. وحمى الغرام تلتهب فوق جبينهما وتصهرهما معا والوهج الذي في عيونهما صدى لذاك النداء الغريزي الفطري شدتها وداد نحوها برفق وأستجابة، تود لو يسكت القلب الصاخب بين اضلاعها كي لاتشكف ضعفها ولهاثها الحميم للفتاة الغريبة. لكن صواري شدتها أكثر وجعلت ظهرها الى صدر غرفة القياس الضيقة والقت وداد ببدنها كله على الصدر المرحب.
فكان الوجه للوجه والقلب للقلب وأحست كل بنهدي الأخرى الأكعبان موجها نحوها بتحد.
وحلمات نهودهما القائمة تتلامس بصمت عميق يقول كتبا حدقتا في وجهيّ بعضهما. كانت الواحدة ملئ السمع والبصر والفؤاد جميعا للأخرى، كائنان يقظان تتبادل اعينهما النظرات فتحول المكان الى نور خالص يتدفق من حمى الفوائدين المتقابلين. ولما رفعت صواري شفتيها تلاقهما فوه وداد ورشف من خمرهما حتى السكر وشعرتا أن نارا تحتويهما. أصبحت الأثنتان وكأنهما فكرة وحداة متكاملة وشيئا جميلا يمثل الحياة والحب. أن شعور الأبتهاج الذي عثرت عليه المرأتان معا في العواطف البيسطة كالمس والأبتسام أو حتي القبلة كان بسبب القوة الغير عادية التي يُعرف بها الفرح والأبتهاج في الإحاسيس والعلاقات الإنسانية قد بلغت درجة التعبير فأصبحتا في لحظة البوح والتعارف تلك شيئا مشتركا ومنفرجا. كلاهما كان يعلم أن تلك اللحظة ستكون أبدية وسيدوم وقيدها طيلة حياتهما. لاشئ سيقدر ان يفرق بينمهما الآن فقد فتحتا أبواب الأحلام لتكونا معا في غفوهما كما في صحوهما.

في الأيام والأسابيع التي خلت، نمت صداقة حميمة بين وداد وصواري مصحوبة بحب قوي أنغرس عميقا في قلبيهما المشتاقين في الحقيقة السرّية التي جمعتهما. لم يفت صواري أية ظهيرة خالية من محاضرة او من أمر متعلق بالدراسة الإ وحضرت 'ضؤ القمر' فتتلقفها وداد التي تكون في أنتظارها على أحر من الجمر بين ذراعيها وتقبل وجنتيها ثم تذهبان الى غرفة القياس لمزيد من العناق والقبل. وفي اليوم الذي لا تلتقيان كانتا على التليفون الخلوي كلما سنحت لهما الفرصة. فتتكلمان وكأنهما لم تريا بعضهما لأشهر؛ وحشني صوتك أخبارك، وحشني كلامك الحلو حكاياتك لمساتك المتمعة وهمساتك الجميلة.

منذ لقائهما الأول تغيرت مفردات كلامهما وأصبح في ذلك الوقت من النادر أستخدام تعبيرات مثل الذكر وقوي والقائم على الدار وأستبدلت بالفاظ أخرى مثل الأنيق والأصيل والحيوي وغريب ووحشي وآخاذ. في البداية كانت صواري شبه مكسوفة وشبه وجلة من مقابلة نادر، فإذا كان في المحل أختفت عنه. في كل يوم بعد ضجعة القيلولة - عادة بعد الخامسة بقليل - كان نادر وعلي يصلان الى 'ضؤ القمر' فتغيب صواري ولا ترجع حتى تتصل بها وداد على الخلوي وتخبرها ان الجو قد صفي لهما فقد ذهب نادر الى المقهى. وعلي يلعب حولهما - كان له من العمر حينئذ ثلاث سنوات - أنغمست المرأتان بحديث لا ينتهي. بين كؤوس الشاي والعصير وخدمة الزبائن ثم تسرقا القبل في غرفة القياس التي سمتها صواري 'صومعة حبنا'.

أكثر من اي وقت مضى في حياتها التي كانت فارغة من الحب، شعرت وداد بأن العودة الى حقيقة نفسها قد صارت ضرورة قسوى. كانت تلهث غارقة في التأمل فلقد أثر فيها لقائها بصواري تأثيرا بالغا فتأتيها في الأحلام وتراها سعيدة تغني في مرج أخضر تزينه الزهور. صارت أحلامها أكثر وضوحا وغدّت أحتفال وضحك وأنوار ساطعة وضياء شمس مشرقة. كانت هي وصواري في قفص الحياة الهائل المزدحم باليمام الأبيض ونور بهي يهبط من السماء فتندسا بين القضبان لتقبضا يدّ القدر وتتلاشيا في السحاب الأبيض. كانت تتسأل في سرّها عمّا يعنيه مارأته في الحلم. وداد التي كانت يوما يضنيها تأنيب الضمير لم تبذل أي جهد لكي تتعايش مع الحلم السيعد وتتقبله كأمر طبيعي من حقها، كشرب الماء وتنفس الهواء. كانت عندما تصلي تمكث على سجادة صلاتها وهي راكعة تتأمل بعد نهاية الأداء. لشدة استغراقها في الصلاة كانت تنادي صواري فتحضر الشابة وتحدثها وابتسامة هائدة بريئة على شفتيها المنفرجتين عن أبتسامة وادعة. وقبل أن تنهض من ركوعها كانت تقول لنفسها، "ما دامت معي هنا وأنا بين يدي خالقي فهذا يعني أن الله لا يشاء ان نتخلى عن بعضنا. ما دامنا أمامه ماثلتين فلن ننهزم...."

كان طيف صواري يبقى ماثلا أمامها صامتا وكأنها تنتظر من وداد قرارا حاسما. تبدأ وداد تردد أسماء الله التي تعرفها وترددها بتكرار مشددة على الرحمان والرحيم والعليم والقدير وفي أعماق نفسها تسأله، "يالهي لماذا أعطيتني هذه الرغبة؟"

فتسمع صوتا انيسا يردد في أذنها، "لأنكما تستحقان ان تعطيا السعادة. أنكما تستحقان بعضكما...."

لم تصنع المرأتان حاضرهما لقد أتكلاتا على المصادفة لكي تحدث المعجزة في أربد، تلك المدينة التي كانت فيها حرية المرأة الملحوظة أقل وأقل. لقد أفلحت وداد بطرد تلك الشخصية الضعيفة من فكرها وأفلحت في مقاومة العالم والأحباط الذي جعلها خانعة تحت إرادة نادر. بعد أن تعرفت على صواري ورأت الأمور كما هي أرتضت وداد أن تخوض الصراع ضد نفسها وضد الأشباح حتى أنها أستغربت التطور السريع في شخصيتها فكانت تسأل نفسها أحيانا، "ما مصدر هذه الحيوية التي يستقوي بها جسمي وروحي؟"

وبصرف النظر عن عذاب الضمير الذي كان أحيانا يستولي على أحساسها المرهف، كان ينبغي أن تنتصر وداد كما أنتصرت صواري من قبل على شكوكها ومكامن ضعفها، خصوصا الأوهام التي يغذيها كل كائن بشري يجد نفسه في هذا الوضع الغير عادي. كان الضعفُ يكمن في أن تأخذ المرأتان مشاعر الأثم على أنها الواقع وبذلك تكونا متواطئتين في خطيئة فتحسبا أن نفسيهما قد خطّتا خطوة الى الوراء في أتجاه الجحيم. لكن وداد أدركت الحقيقة ورفضت أن تستمر بالسير في تلك الصحراء التي خلقتها من حولها وعاشت فيها وحيدة مع نادر. كان لا بد لها من الأنعتاق من كل شئ لتفضي الى لطائف الحب الذي وحده يشرح سبب الوجود. في صبيحة اليوم التالي للقأها بصواري بعد أن أعدت البيت وبدأت تجهز نفسها للذهاب الى 'ضؤ القمر'، جلست وداد أمام التسريحة وبدأت تحكّ يدها المرتشعة لتدفئها بحكها بديها الأخرى. قالت لأنعكاسها بالمرآة، "أنني عادة لا اشعر بالبرد. كيف أشعر به الآن في هذا الشهر الحارق؟" عندئذ أدركت أن البرد هو الذي يؤكد حقيقة وحدتها. وأضافت تقول وهي تكلم المرأة التي تقابلها في المرآة، "لن أقبل البقاء وحيدة. لن أرمي فرصة العمر هذه الى العدم. لقد شأها ليّ ولها القدر. ولكن لماذا الآن اشعر بالبرد؟ أن هذا غريب فقد كانت ليلة أمس ليلة هادئة...." فجأة شعرت بنسمة خفيفة أتية معها بالبرد الخفيف ورائحة الأنوثة الطازجة فارتجف جسدها وقالت، "أنني أتذكر أنني رأيت صواري في بعض الاحلام السابقة...." ورأت أنعكاسها في المرأة يبتسم، فتمتمت، "أن هذه الأبتسامة تعبر عن السعادة والأستسلام لذاك الحب الذي قالوا أنه أثم مستحيل وغبر قابل للمنال...."

صارت وداد تعرف كل ما يجب أن تفعله دون أن تكون قد مارسته من قبل. كان لديها متسع من الوقت للوصول الى عمق الفتاة التي فتحت لها الأبواب بنظراتها الواعدة عصرية البارحة. كان توفر الوقت الكافي لعودتها من جديد ليلتقي فوها بالشفاه الموضوع عليها الأحمر القاني.

رغم أن وداد كانت تكبرها بفارق أكثر عشرة أعوام، كانت صواري الأكثر خبرة بحب المثل النسائي ولم تكن وداد أول امرأة ضاجعتها ثم وقعت في غرامها. كانت حبيبة صواري الأولى ريما، بنت حارتها وزميلتها في الصف. كُبرت البنتان في عمّان في نفس الحيّ بجبل الحسين ومنذ صِغر نمت بينهما صداقة حميمة تحولت الى حب حقيقي عندما بلغتا وصارتا تعرفان منعى العلاقة الجنسية. لما كانت أخت صواري تشاركها في حجرة النوم، لتكونا بمفردهما فضلت الصديقتان المبيت في بيت ريما 'أميرة الدار' المدللة كما كان يناديها أبوها. في سنين الدراسة الثانوية، بين الأونة والاخرى، لكثرة الحاح ريما عليها كانت ام ريما تسمح لصواري أن تبيت عند صديقتها بحجة المذاكرة معا. ولما وصلتا مرحلة التوجيهي، وحتى لا يضيع الوقت بين الرواحان من دار الى دار، في الاسبوعين الأخيرين قبل جلوس الإمتحان، طلبت صواري من أمها أن تمسح لهما في البقاء عند ريما لتدرسا وتحضرا معا فقد كانت أم ريما قد أعطت موافقتها سلفا. كانت ريما صُغرى أبناء العائلة والبنت الوحيدة لأبويها بين أربعة أشقاء ثلاثة منهم قد تزوجوا. أما أصغر الأخوة الذي كان يكبُر ريما بثماني سنوات فقد كان حينها لازال يكمل دراسته في أسبانيا. لذلك كانت أم صواري حينما تسمح لأبنتها أن تبيت خارج الدار عند صديقتها كانت تعلم أنها في أمان فليس في بيت صديقة أبنتها الإ الأب والأم وريما.

في ليلة قبل بدأ إمتحان التوجيهي بأسبوع، أفاقت أم ريما من النوم وكانت الساعة قد تعدت الثانية ليلا وشعرت أن حنجرتها جافة. بعد أن تعوذت من الشيطان الذي صّحاها، على ضؤ الليل قامت ام ريما من جانبها بالسرير بجوار زوجها الذي كان يغط في نوم عميق وذهبت الى المطبخ لتشرب كاس ماء بارد من الثلاجة. وهي تعبر الصوفا لاحظت أن حجرة ريما كانت مضائة وبابها منحرف جزئيا فهمست أم ريما لنفسها، "هل من المعقول أنهما تدرسيان الى هذا الساعة

المتأخرة؟"

ولما إستبعدت الفكرة، قررت أنهما لابد نائمتان وقد تركتا الضوء مولع. عرجت أم ريما بخفة وهدوء صوب غرفة أبنتها غايتها أطفأ النور أن كانتا نائمتين أو تنصحهما بالكفاف عن المذاكرة فقد كانت الساعة متأخرة جداً. دفعت أم ريما باب الحجرة بمنتتى الهدوء كي لا تزعجهما او يجفلهما دخولها وهما تركزان على الكتب. لما ولجت أم ريما من الباب أصيبت بصدمة من الذعر والفزع لم تشعر بمثلها أبد في حياتها. هاجت نفسها كما لو أن بركان قد تفجر في صدرها فتزلزلت أوصالها ولفترة إرتبط لسانها من هول ما رأت. لقد فوجئت أم ريما في الحجرة الغارقة بالضوء بريما وصواري عاريتان على السرير في عناق طويل وهما تتبادلان القبل. همس الصوت الصغير في رأس أم ريما بغثيان وقرف أعاد الأحساس إليها، "أستغفرك يارب وأتوب اليك. أستغفرك يارب وأتوب اليك. الشر على العدى، سُحّاق في بيتي! يا للفضحية! يا للعار! يا لخيبتي! أهذه هي بنتي الاميرة! يارب ماذا أفعل بهذه المصيبة التي لا كانت لي لا على البال ولا على الخاطر؟ يا رب أستر عليّ وعلى بنتي...."

كان أشمئزاز الأم وغضبها شديدين لما رأت فكادت ان تصرخ لكنها في أخر لحظة تماسكت نفسها قبل أن تنهار وتصحي زوجها فحبست الصوت في حنجرتها فريما عزيزة عليها ولا ترغب أن يصيبها أي أذى تكون هي سببه ولا تستطيع التمكن منه. في خضم الغرام لم تنتبه العاشقتان لوجود المرأة. لتتأكد مما تراه لعدة ثواني راقبت أم ريما أبنتها وصواري وهما في غيبوبة غرامية تتهامسان وتتلامسان ولاتشعران بالعالم من حولهما. مباشرة وضعت ام ريما اللوم كله على صواري التي كانت تعتقد أنها جريئة زيادة عما يجب ان تكون عليه البنت المهذبة وأعترفت وهي تلوم نفسها، "لولا أن صواري ذكية جدا وتساعد ريما في الدراسة لما سمحت لها المبيت في بيتي ساعة واحدة."

ولما لم تستطع كظم قرفها وغضبها لثانية أخرى أغلقت أم ريما الباب بهدوؤ ثم سارت على رؤوس أصابع رجليها الى السرير وكل شئ فيها يهتز بعنف وغضب والتقطتهما وهما في عناق حميم. جفلت الفتاتان وتجمدتا من الخجل والذعر. بقهر وغثيان وصمت يصرخ في رأسها، صارت أم ريما تعض وتقرص البنتين بأسنانها وتغرز أضافر يديها بالجسدين العاريين تريد أن توجعهما وهي تفصل أبنتها عن صواري. غير أن العاشقتين كانتا قد تجمدتا خوفا وفي الحال لم تشعرا بالألم عدى أنهما قد أُكتُشفتا وأصبح امرهما - الذي لمدت طويلة أخفيتاه بمهارة - مفضوح. كانت اولوية الأم الغريزية هي التستر على شرف وعرض أبنتها وعدم فضحها امام أهلها و أمام الناس فتسئ سمعتها ولا ترغبها أم زوجة لأبنها. رغم سخطها على ريما ورغبتها بالأنتقام من صواري التي أصرت لنفسها أنها قد ضللت أبنتها وقادتها بعيدا عن السراط المستقيم، بقيت أم وداد متماسكة الأعصاب ولم تنبه زوجها بالعار الذي أكتشفته في حجرة 'أميرة الدار'. من دون صوت يُسمع خارج الحجرة طيلة ما تبقى من الليل أستمرت أم ريما تكيل عليهما سخطها وتضربهما وتعضهما بكيد شديد حتى أدمت أسنانها وأضافرها الجسدين العاريين في الأمكان المغطاة. لشعورهما بأنهما قد أقترفتا جريمة فاحشة، قرفصة الفتاتان في وضع الجنين في الرحم وقد غرقتا في بحيرة من عرق الخجل والسكوف والخوف مما ستفعله المرأة بهما ومن الذي سيفعله ابو ريما بهما لما يعلم بالسر الرهيب الذي كشفته زوجته.

غابت صواري وريما عن مائدة الفطور ذاك الصباح ولما سأل أبو ريما زوجته عنهما، أدعت انهما من تعب المذاكرة لازالتا نائمتين. ولما خرج الرجل في سبيل شغله، هددت ام ريما صواري بأنها حالا ستتصل بأمها في التليفون وتخبرها برذالة أبنتها وبكل الذي صار ليذبحها ابوها وتنظف البلد منها ومن شذوذها ومن شرها. رغم شعورها بالذنب لإكتشاف أمرها حاولت صواري تهدأت المرأة الشرسة والحوار معها لتفهم منها الذي تنوي عمله. غير أن أم ريما فقدت

عقلها لجرؤة صواري وصرخت في وجهها، "وهل لك عين تتكلم يا عاهرة. أخرجي من بيتي يا ساقطة، يا مُنحطة، يا قليلة التربية، يا عديمة الشرف...." ثم طردتها من بيتها وحرّمت عليها تعتيبه مرة ثانية او رؤية ريما مازل بها الروح والنفس.

أما ريما فلاذت بالسكوت ولم تنطق ببنت شفة بينما كانت صواري تحاول تلطيف الجو وتدعي أن لاشئ يمس بعذورة ريما او عذورتها قد حصل وانما كانتا فقط تلعبان. لما تخلصت أمها من صواري ودارت الدائرة عليها، زعمت ريما أنها لا تعلم بشئ من الذي سمعته او وصفته أمها وأنها كانت غاطة في نوم عميق حينما دخلت أمها الغرفة. في الأيام التي تلت بعد أن كانت تضربها أمها ضربا مبرحا بالعصى وتسمم روحها بالكلام والتهديد حبستها في غرفتها كعقاب لها حتى أذلتها وحطمت روحها الفكاهية.

يأكلها الخجل والكسوف والخوف من أن تفضح أمها سرها لأبيها او لأحد أخوتها، لشهر كامل كلما كانت ريما في حضور أمها بكت بحرقة وهي تقبل يدّيها بذلّ وتطلب السماح منها وأن الذنب كان كله ذنب صواري التي ضللتها. لشدة ذعرها مما قد يحصل لها أن علم أبوها أو أحد أخوتها، عافت ريما الطعام وأغلقت بابها فوهن جسمها وبدت وكأنها فعلا مريضة. لم تسمح أم ريما لأبنتها حضور إمتحان التوجيهي، وقد أقنعت زوجها بأن البنت في حالة لا تسمح لها الذهاب الى قاعة الإمتحان ثم تضيف لتهون من خوفه على صحة أبنته، "يا رجل، السنّة وراء الباب. انشأ الله العام القادم تقدمه."

أما إذا سائل أبوها عنها أدعت أمها، "البنت مريضة مرض خاص بالنساء. انشأ الله قريبا تقوم بالسلامة. . ." فيخجل الأب من الإستفسار.

ولما طال مرض أبنته أخذ يحث زوجته ليعرض البنت على طبيب. ولما سمعت ريما بفكرة ابيها كادت أن تفقد عقلها. إرضاءً لأبنته وخوفا من تفعل بنفسها حاجة، أجّل أبوها الأمر في الوقت الراهن. في نهاية صيف ذاك العام وافقت ام ريما على زواج أبنتها لأبن عمها الذي كان سابقا قد تقدم وطلب يدها ولكن لموضوع كان قد أُجل حتى تقدم ريما إمتحان التوجيهي ويكون معها مؤهل يفيدها لحاجات الزمان.

بالنسة لأم ريما كما للأغلبية الساحقة من شعوب الأوسطي، معنى التصرف السوي لا يقتصر فقط على ما يفعله الأنسان علنا ولكن يجب أن يضم كذلك كل المهارات البشرية بدئا بتدريب الاطفال في الصف وفي ساحة المدرسة. أسمى القيم عند مجتمع العرب هي القدرة على الحياة الفاضلة أو الدينية التي تقول أن هناك تصرفات أخلاقية وأخرى غير أخلاقية وان على المجتمع ان يكون أخلاقيا لذلك ساد الإعتقاد بأن العمل الخلقي يستحث الاخرون للميول الى سوية الأخلاق. الحقيقة أن التصرف الذي قد يسمى خلقي شئ غير ثابت على سبيل المثال حب المثل الذي جمع بين ريما وصواري (هناك مثلهما ملايين من نساء ورجال العرب). تتغير الأخلاق حسب الميول البشرية والضروف الأقتصادية والتاريخية في فترة ما وفي مجتمع ما. من ناحية فردية صحيح هنالك أختلاف بين الإثارة والتأمل الجنسي والميل للعنف والفسوق. يستاهل المجتمع المديح عندما يضع نظاما معقولا يحث على أتباع القانون البعيد عن الإضطراب الخلقي يحصن الفرد ضد التغالي في رأيه ويعد امر ما صحيحا وذا قمية وله أثر فعّال أذا ما وافق الرأي العام الذي بأمكان السلطة التلاعب به وتقليبه.

أن الفوضى والخطأ الذي يقع فيه الفرد يحدد كونه عملا لاأخلاقيا برائيه اولا ثم بما تقبله السلطة. في زمن الأنسداد والجمود يمكن ان يساء فهم العمل الأخلاقي بما تستهويه الحواس والرغبة في الأنتقام اكثر مما يستهويه العقل والرغبة في المعرفة. في تلك الآوان المتجمدة يكون التأثير في السلوك الإنساني وتشكليه وتوجيهه الى الخير والشرف بناء على نمط عرفي ليكون بذلك قدوة للمجتمع. أما مسألة الرقابة التي تسهدف أساسا النهوض الاخلقي في الشباب وأثراء

التصرفات الحميدة والحيلولة دون إحداثها آثارا ضارة ليصبح في وسع الفرد الحياة بطريقة مشرفة محددة بالقانون والعرف.

أما مذهب الأخلاق على أساس النظرية التي تعّرف التصرف السوي على انه يطهر النفس من الأهواء والشهوات والإنفعالات أو يخفف من حدتها ويحد من تقلبها، فهو الخضوع لفكرة العودة الى الدين كما فسره أئمة فترة تقدم سابقة وبذلك يحول دون إحداث اي تغير اجتماعيا وفرديا هدام أو بناء في جيل الشباب. يدرس العرف عادة من خلال سياقه التاريخي والأجتماعي والنفسي فيعتبر في حقبة ما تصرفا ما شذوذا من قبل الأغلبية وفي فترة أخرى يعتبره اجتماعيا يجسد مويولات أنسانية تعكس رموزها سمات العصر الذي تنتمي اليه. وهكذا ينظر الى حب المثل على أنه ضاهرة تجريبية ضمن ضواهر العصر الأخرى وقد تقبل إذا ما دعمتها شخصية تربوية قادرة على شرحها شرحا دينيا وحياتيا للعامة.

رغم علمها الكامل بأن مويولها النفسية تخالف ما رُبيت عليه كبنت أخرتها للزواج، تلك الخبرة المؤلمة مع حبيتها الأولى ريما حددت بوضوح منقطع النظير أنفرادية صواري فخشوشنت شخصيتها الى عصفورة صلبة تعلمت كيف تظهر طبيعية للأهلها بينما في سرّها كانت شيئا أخر عرّفها لنفسها كأمرأة لا تستطيع العيش بما يشبه الواقع الإ إذا رضيت بتلك الحقيقة الخفية عن الناس. بعد أكتشاف سرّها الرهيب عاشت صواري أيام طويلة في صمت غريب وكأنها تعاني مرضا نفسيا فجائيا لم يستطع أحد من أهلها سبره. رغم تشجيع أمها التي فهمت أن شجارا حاد قد وقع بين صديقتي الطفولة ريما وصواري، حاولت جاهدة فهم حالة أبنتها الطارئة. بحجة الألم والمغص الشديد الذي تشعر به، رفضت صوراي الخروج من البيت والذهاب الى قاعة إمتحان التوجيهي. في سرها صارت حياة صواري اليومية معلقة بضربة جرس التليفون. فإذا ما سمعته رنّ أضطربت وخرجت عن عقلها وأختبأت في حجرتها وأغلقت بابها عليها. كان أصعب شئ في الأمر أنها لا تستطيع الحديث لأحد عما جرى معها. فإذا سألتها أمها، "ما بك يا حبيبتي؟"

كانت صواري تتهرب من الأجابة وتقول، "والله لا علم يا أمي. كأن غيمة سوداء قد خيمت عليّ...."

وإذا أقترح أبوها أن يعرضها على الطبيب كانت ترفض وتقول، "ومإذا أقول للدكتور؟ أنني لا أحس بأي وجع، يأ أبي. أنها مجرد كأبة نفسية وستزول من نفسها انشأ الله...."

ترفع أم صواري يديها صوب السماء وتقول، "الله يسمع منك، يا بنتي. يا رب أشفي صواري مما يسّود نفسها...."

في محيطها العائلي كانت صواري معروفة بالصدق، ولذلك لم يتشدد ابويها في أمر الطبيب. يوما بعد يوم كانت صواري تتوقع أم ريما أن تتصل بأمها وتفضحها فقد كان لديها أمرا ذو سَمَاع . لكن رغم رغبة المرأة الأكيدة في إذاء صواري التي ضللت ابنتها ولطخت أسمها، فهمت أن سمعتها أرتبطت بأحكام بسمعة أبنتها، فتراجعت أم ريما عدة مرات عن رفع سماعة التليفون الى أذنها وضرب رقم أم صواري لتخبرها بالذي كشفته، فسمعة ريما كانت أهم من أي شئ أخر.

بمرور الأشهر، تدريجا بدأت صواري تدرك أن أم ريما لن تفعل شئيا من الذي كانت قد هددت به. ولما جاءها الخبر بأن ريما قد خُطّبت، أصاب صواري شئ من خيبة الأمل وجضّ قلبها ألما لموت حبهما ولكنها كذلك أيقنت أن سرها سيبقى خفيا. بعد أن تغلبت على خيبتها لفقدان صديقتها وحبيبتها، بدأت جروح الفقد تندمل والحياة ترجع الى صواري. على مدى الأيام السؤال الذي كانت تطرحه الذاكرة عن تلك الفترة الجميلة برفقة ريما خفت وضعف الى درجة التلاشى وصارت صواري تبني دورة أخرى في حياتها بدون ريما التي ألفت رفقتها طوال حياتها.

عادت صواري الى واقعها وأخذت نفسها تطيب وصارت تعد من جديد لتقديم التوجيهي. ولما تزوجت ريما أبن عمها بكت صواري بحرقة على ضياع ذاك الأمل الطفيف بلقائها يوم ما. لكن صواري كانت حصيفة وذات ذكاء طبيعي، في الصيف التالي نجحت في الإمتحان بمعدل جيد خولها أن تختار أيا من جامعات الأردن. في تلك الآناء سمعت أن ريما قد خلفت ولدا فكان الخبر كسكين تقطع قلبها. لتبعد عن ريما وعن عمّان وعن ساحة ذكرياتها المؤلمة، إلتحقت صواري بجامعة اليرموك بأربد لتدرس تجارة وأقتصاد. في محاولة جادة لتفهم نفسها وميولها الجنسية التي لا تتوافق مع الرأي السائد الذي أنشأت عليه وهي أن الأنثى لا يشبعها الإ ذكر، أخذت صواري تبحث في مكتبة الجامعة علها تفهم لماذا هي عن غيرها من البنات لم تجد في الرجال اية أثارة جنسية. بعد بحث أنفرادي دام أشهر، تدريجيا بدأت صواري تدرك أن هناك في العالم مئات الملايين من النسوة مثلها وأن الدول الغربية تأخذ الأمر على أساس أنه حالة طبيعية لدرجة أن بعضها تسمح بما يشبه الزواج بين أفراد الجنس الواحد. لجهلها التام بأمر جنسانيّتها لم تعرف صواري الكلامات في اللغة العربية التي قد تشرح وضعها أو تصف حالتها عدى كلمة 'سُحّاقي' التي توحي بالجرم والخطيئة ويشبع فضولها، فصارت تفكر في وضعها بكلمات أنكليزية وتقول عن نفسها 'أنا لزبين'.

ملكت صواري عين ذكية وحسّ إنساني راق، فلما حدث مرة وشاهدت وداد صدفة في شارع السينما في أربد، شئ ما خفي في نفسها، أكد لها أن المرأة 'لزبين'. لعدة أشهر راقبت صواري وداد عن بعد وأحيانا كانت تتجرأ وتمر من أمام 'ضوء القمر' ولكن عادة كانت لا تجد الشجاعة الكافية لتعتيب المحل. ولما جاء اليوم وفعلت تلقفتها وداد بالأحضان كما سبق الذكر.

١١

أستمرت علاقة الحب والصداقة بين المرأتان تنمو على هذا الحال لما يقارب العامين، تسرقان الوقت بالتلاطف والقبل والتلامس كلما سمحت لهما الظروف. أما إذا سافر نادر في رحلة من رحله الكثيرة كانت صواري تبيت في بيت وداد فيكون الليل بطوله لهما لتتمتعا بالقرب والوصال وتكون وكأن الدينا ملك أياديهما. لرغبتها الشديدة للبقاء قريبة من حبيبتها وداد، أمضت صواري معظم عُطلها الدراسية في أربد بحجة المذاكرة. وإذا صدف وذهبت لزيارة أهلها في عمّان، أمضيتا معظم الوقت على الخلوي في حوار حالم سجلته صواري كما كانت تتخيله في مذكراتها كالأتي:

رفعت رأسي فكانت عينا وداد وكأنهما جمرتان ونظرتهما مشتعلة تحترق مثلها ومثل يديها. ولما وصلت اليّ في غرفة القياس راقت لي وتذكرت أنها كانت قد نظرت اليّ من قبل بنفس الطلاقة في ذلك الحلم البعيد. ولما وجدت نفسي أمام تلك المرأة المجهولة ذات العينان بلون العسل الصافي في ذلك الحلم الذيذ سألتها لاول مرّة، "من أنت؟"

أخذت وداد من السيجارة نفسين وبقيت أنا ساكنة وهي ترمقني. فجأة نظرت اليّ وداد نظرة غطتني من قمة رأسي الى أخماس قدمي فتزلزل كياني ثم قالت، "أود لو المسك...."

فأجبتها بتحدي بصوت أجش وعميق،" أنك تغامرين بفقدان كل شئ...."

فقالت وداد، "أنني أفهم كل شئ. لكن الآن لا شئ يهم، يكفي ان يتقلب كل منا على مخدة واحدة." ثم مدت يدها ولمست خدي بحنان.

كان لمسها وتربيتها كالسحر فلم أستطع على الحراك وقلت من جديد بذات الصوت المتحدي الأجش، "أنك تغامرين بفقدان كل شئ. هذه الطريق مليئة بالأحلام الصعبة. . ."

فقالت وداد وهي ترى صُغر سني، "وكيف تعرفين ذلك وأنت بعدك جديدة على الحياة؟"

فقلت ودموع الفرح قد تكورت في قرن مقلتي، "أنني كنت هناك...."
فقالت وداد وهي تبستم وفي محجريها نظرة ودودة لكن سارحة بعض الشئ، "أتذكرين؟"
فقلت وقد غبّشت الذكرى راسي لهنيهة، "أتعتقدي أننا رأينا بعضنا قبل الآن؟"
فقالت وداد بعدما لثمت خدي، "أعتقد أنني حلمت بك ذات مرّة في نفس هذا المحل...."
فقلت وقد عادت الذكرى الى ذهني، "هو ذاك الآن. أنني أتذكر الموقف جيدا...."
فقالت وداد والسعادة تلمئ صدرها سرورا، "ياله من أمر عجيب حقا! لقد التقينا في أحلام كثيرة أذن...."

ربما أنتقل الأمل الى وداد بالعدوى من صواري التي كانت تراود 'ضوء القمر' تقريبا يوميا. بين جدرانه الحجرية تعلمت وداد كيف يمكن أن يكون الحب بالنسبة لها كامرأة بعدما دخلت صواري عليها للمرّة الأولى وعرّفتها به. لبضعة ليالي بعد لقائهما الأول، كانت وداد حساسة جدا ووجلة من نفسها ومن إنكشاف أمرها أمام الناس بشكل مذعر. كانت تسهر وحدها مع الأمل الليل الطويل في عتمة صالة بيتها حارسة للصمت. كان تبقى ساهدة تمتص دخان السجاير الواحدة تلو الآخرى وهي تحيى ذكرى لقائها الغريب بتلك الفتاة الفاتنة من دون أجتذاب أو أنتباه زوجها ومن دون التشبّث بالواقع ومن دون التهام الحقيقة الواضحة الناغلة بالمخاوف. حتى جاءت صواري تحمل اليها الحياة في يديها كباقة زهور، كانت وداد قد تعلمت أن بأمكانها الأعتياد على كل شئ بلا وجه وبلا جنس وبلا أمل. منذ ذاك الأنقلاب المفاجئ لشخصيتها وأتخاذ الصمت صديقا قبيل بلغوها، لم تسعى وداد ابدا لئن تعرف كيف تتدبر النسوة الأخريات أمر الحب الذي ظلت غافلة عن ذكره. في الليلة الثالثة من لقاء الفتاة التي أخرجت الأمور من أوكارها، قررت وداد أنها كانت امرأة بلا مثيل وبلا خطيئة وبلا ماضي لتفقده وتتحسر عليه. لقد قررت بأنه قد صار حتما عليها أن تفكر بما يظنه العالم الخارجي بها ولكن رغم ذلك لن تحرّم على نفسها حقيقية الرغبة الجسدية التى توقدها صواري بكل إيحاءتها. قبل ثلاثة أيام فقط كانت وداد لا ترى أحلاما جنسية في منامها وقد توقفت نهائيا عن التفكير بالرجال فلا واحد منهم قد نجح بإثارة شهوتها بالرغم من أن الأمر كان صميما ويتعلق بكل رجل على حدة. من ناحية ثانية كانت وداد دائما ضد الوفود النسوية التي كانت تجيأها لتدخلها حياة الحريم لأنها كانت تشعر باطنيّا بأن صدرها كان يتقد مذ كانت صبية على ملمس بعض الأناث.

منذ اليوم الثالث للقائها بصواري، بدأت الحياة بالنسة لوداد تأخذ شكلها الحقيقي. أحسّت المرأة أنها قد أصبحت أكثر ملاحظة في مجالات التصرف البشري وأنها غرزيا تندفع الى المزيد من المقارنات والتطورات المتماثلة، خاصة في التصرف الأنثوي. بشكل عام وعلى نطاق واسع صار مفهومها أكثر منطقية لما هو ممكن وما هو مستحيل وغير قابل للتطبيق لئن المجتمع لن يقبل به. فالسمّات التي توشير اليها علاقتها الجديدة مع العالم تؤكد لها أن الأنماط الشكلية التى وجب الأتمثال بها تؤلف نظاما في الوجود الخاص بها وبصواري. أن هذا النظام الذي يتصف بالحركة والحيوية سيدفعها الى تقمص أشكال متعددة لنمط موحد ومنظم مع أهلها وزجها. من الأن وصاعد لن يكون تصرف وداد وصواري مرتبط بالصدفة فقط ولكن بالتخطيط المسبق المحاط بالسرية والوجل. أمضت وداد ساعات طويلة وهي ساهدة في عتمة صالة بيتها وهي تخمن وتحلل وتأول السبب الصحيح الذي دفع بها لتخالف جميع الأعراف المتوافق عليها في المجتمع وتوصف بالطبيعي. في الحقيقة كانت حياة وداد لا تعكس الأصول ولا تطابق أستجابة المرأة العاطفية للرجل لذا كان عليها البحث عن سبب أكثر انفتاحا من التقيد بالمعروف وبخطوات اولية جريئة لوصف وتحليل ما وجدت في نفسها من حب آنيّ للفتاة التي دخلت 'ضوء القمر' عصر الأربعاء الفائت.

منذ حلول حقيقة صواري في قلبها، أدركت وداد أنها قد فهمت كل شئ كانت تجهله أو

تخفيه عن نفسها وعاودت وداد التفكير بالشمس وبالضياء، ويوما بعد يوم رأت أنوار طفولتها من جديد تشع وتنير الطريق. أستعادت وداد ذكرياتها القديمة كلها بعد أن كانت قد قطعت صلتها بها منذ زمن سحيق. أنبثق الضوء عن شفق الأمل مجددا بعدما تعرفت على صواري وفجأة صار للحياة سبب ومعنى ستجاهد بأقصى شجاعتها للأحتفاظ بهما. وفي المساء عندما كانت تنزوي بالبيت بنفسها، كانت وداد تبكي بكاءً شديدا لتغسل الماضي وتعيد اليها بصيص من الرجاء والطموح بالحب.

من وجهة نظرها بدأت الأمور في حياتها تستوي وصار بأمكانها الأجابة على كل الأسئلة التي كانت تعصف في رأسها ليل نهار. الآن فقط فهمت وداد الحقيقة التي كانت قد أمضت عمرا وهي تعرفها بالخفية فقط. لقد بدى لها كل شئ واضحا ولماذا كانت في صراع متواصل ضد غزو الرجال لحياتها وضد الرغبة الحقيقية التي كانت تزلزلها إذا ما لمست فتاة. قررت وداد ينبغي إن لا تدع حقيقة صواري تمّر عليها ثم تتسرب كظل خلفته الشمس وراءها، لا الحلام ولا الخطط ولا العطور ولا الورد ولا روائح المرأة ستمر هباء.

أن حقيقة صراع وداد القديم مع العالم تقضي أن لا تقيم سدا ضده وأن لا تدعمه حتى ولو كانت جدرانه التي تأسرها تبدو مكسوة بمادة خاصة تجعلها على نحو قاطع ومطلق سداً عازلا. الآن صار حتما عليها أن تصر على الخروج الى النور لتحصل على حصتها من الضوء ومن الفضاء الذي يسقف كوكبنا السابح في فراغ لا تسعه سوى قدرة الله. لقد أنشكفت لها إسرار تلك الحقيقة الغامضة وصار صراعها مع ما كانت نفسها عليه جذريا فبين الآونة والآخرى كانت تفاجئ بأضطراب نفسي شديد فتغمض عينيها عن الضوء وتفكر كم سهلا تكون الحياة فيما لو كانت امرأة عادية تقع في حب رجل. لقد غدت وداد واثقة أنه مهما حصل لها فالسماء لن تكون حريق يؤذي العين ولذلك لم تعد معنية بحقيقة امرها كما كانت من قبل لآنها الآن تعلم ما هي وما الذي يجب أن تبحث عنه. أن أنتصارها على الجهل صار قدرها وينبغي ان تبدئ برفض الجهالة رفضا كليا وإلا سوف تهلك وتقضي قبل ان تبدأ بالمقاومة. بعد سنين الحصار لن تتردد وداد لثانية في السماح لنفسها ان تعيش الحقيقة كاملة ولو بالسر كما يتطلب العرف السائد في مجتمع العرب. لم تعد وداد وأثقة بأن الموت أسهل بكثير من حقّ النطق بما تعرف من امر نفسها. منذ لقائهما تغيرت مفردات كلامهما وأصبح من النادر عليهما أستعمال القانون الذي يحكم حياة النساء ' الرجل قائم على الدار' وجردتا ذلك الى 'شؤون الدار'. وسط كل ذلك الفرح والسعادة بقي شئ واحدا مهما جدا حاضر في مخها وهو كيف يمكنها أن تحتفظ بصواري فبعدها ستكون الدنيا ظلام قارص وتعود حياتها خالية وغير كامله.

بالرغم من أعتراض أمها الشديد، تحت ذريعة أخذ الفصل الدراسي الصيفي لتقصير المدة الدراسية، أصرت صواري على البقاء في أربد خلال عطلة الجامعة السنوية وغايتها البقاء بالقرب من وداد. ولما لم يبقى أمام صواري غير فصلين بالجامعة وصار قرب الفراق يترصد بهما كالموت فاردا جناحيه الأسودين عليهما، كانتا في حيرة حقيقية كيف سيحلان معظلة البعد الصعبة القاسية. آنذاك تدخل القدر بغرابة ليبقي المرأتين معا وكأن مصيرهما كان مكتوبا في السماء.

خلال العامين طبعا صدف مرار وأن شاهد نادر صواري في 'ضؤ القمر' وسمّاها 'صديقة زوجتي الشابة'. من البداية أستغرب الرجل الصداقة الغريبة التي جمعت بين المراتين فلم يكن هناك شيئا واحدا واضحا له ليجمعهما كما رأى. رغم شكوكه المبهمة، بكبرياء ذكورية لم يحاول سبر الموضوع الأنثوي حياءً من السؤال. كذكر لاحظ نادر 'كم هي جميلة صديقة وداد' ولكن كرجل عربي أحتفض نادر بمسافة آدبيه بينه وبين صواري أحتراما لشرفها. وحتى تدخل القدر كان إذا صدف وحظر نادر الى المحل وصواري فيه أعتذرت من صديقتها وخرجت

على طول. قبل أن تصل المحل كانت صواري دائما تتصل بوداد على الخلوي لتتأكد أن الرجل لم يكن هناك.

بالمقارنة بوداد كانت صواري أكثر ثقة بأنوثتها فتظهرها وتتباهى بها بإعتزاز وتحشم. رغم أنها كانت تلبس الحجاب، كانت صواري تهتم بأخر تطورات الموضى والألوان وتزين وجهها بمسحة خفيفة من المكياج وتضع أحمّر الشفاة. كأي فتاة في مثل سنها كانت صواري تعرض أنوثتها بثقة مما جعلها جميلة ومحط أنظار الرجال فإذا صدف ورأها نادر بالمحل أُعجب بها وأثارت ذكورته. بحكم المعرفة والعادة الطويلة، تدرجيا تعودت صواري على وجود نادر في المحل ولم تعد تنكسف في حظوره كما في البداية ولم تخرج كما كانت تفعل. بغرور الرجل النَزوانيّ المعهود عنه، توهم نادر أن التغير الطبيعي في تصرف صواري معه كان على أساس أنها صارت تميل اليه وربما حتى أنها صارت تهواه. أما الحقيقة فهي أنها كانت لازالت تتجنبه وندر جدا أن فتحت معه موضوع نقاش أو تحدثت معه سهوا او عن قصد الإ إذا لم يكن هناك مفرّ من الأجابة على سؤاله.

وتلك الفكر الغالطة في رأسه، بدأ نادر يتوانى بالخروج من المحل إذا كانت صواري فيه ليسرق لمحات سرية تجاه صديقة زوجته. كان يعتقد أن وداد وصواري لم تنتبها له وهو يرمقها من تحت لتحت. وبينما كانت المرأتان في تودودهما الذي ندر أن شاركهما به، كان نادر يضيع الوقت سدى في شبه مغازلة تجاهلتها صواري ولم تتجواب معها عن قصد الإ إذا ما أُحرجت. أستمرت الفتاة تأم ‘ضؤ القمر’ شبه يوميا مما جعل نادر متأكد أنها تفهم إشاراته والإ لتوقفت عن الحضور كليا أو على الأقل خففت من زياراتها أو خرجت آبان وجوده كما كانت تفعل في البداية. ولما غالى نادر في تجرأه وتقربه منها، رغم أنها بقية مؤدبة معه وكلمته بأحترام، تجنبت النظر في عينيه وأقصت نفسها عنه بمنتهى الدبلوماسية. لكن نادر فسر الأمور بشكل مختلف. لئنه لم يجد صدّ كلاميا من الفتاة أعتقد أنها كانت على نفس موجة تفكيره فتجرأ أكثر في لهوه وبوقاحة صار يحاصرها إذا ما خرجت وداد من المحل لامر ما وهو يعتقد في خيلائه ان لابد أن صواري أمرأة ‘سهلة’ غايتها الوصال معه.

طبعا كان نادر خاطئا في تفسيره فصواري لم تستجيب وفي الواقع أستثقلت دمه وأستمرت تنفرته وتشزره وتصده عنها بآدب لكن بسكوت خوفا من أن تغضب وداد. ولما أخيرا تشدقت صواري لصديقتها بالذي كان يحصل بينها وبين زوجها الذي أستمر يتودد لها رغم نفورها منه، أجابتها وداد بأنها قد لاحظت كل شئ وهي أسفة لذلك. لتهون الأمر على صواري صارت تقلد زوجها في غزله المكشوف فضحكت المرأتان. وبينما كانت وداد تهزاء وتسخر بنادر وتصرفاته وصواري تضحك ملئ شدقيها وكأن الأمر مجرد نكتة سمجة، لم يمر وقت طويل حتى أخذت الفكرة التي فيها الحلّ لمشكلة عودة صواري الى عمّان بعد التخرج تتولد لهما الأثنتين في نفس الوقت. لقد أستنتجتا كل على حدى أن الفكرة ليس فيه إبقاء صواري في أربد وحسب ولكن جمعهما تحت سقف واحد أمام الناس وأمام أهلهما.

وبعد أن بحثتا الفكرة وفهمتا ما قد يترتب عليها خصوصا بالنسة لصواري التي ستضحي بالكثير من أجل بقائهما معا، تركت وداد الأمر مع حبيبتها وحاولت جاهدة أن لا تضغط عليها. بعد فشلها الضريع مع ريما، إذا كانت صواري متأكدة من اي شئ فهو أنها لا تريد أن تخسر وداد أيضا. حللت صواري وضعها لنفسها كالتالي، "ربما ما تقوله الكتب صحيح وأن هناك مئات الملايين من النسوة ‘اللزبين’ مثلي ومثل وداد في العالم. لكننا نعيش في أربد وليس في باريس حيث يمكن للنسوة أن تتبادل عقدا يشبه عقد الزواج يحفض حقوقهن أمام القانون...."

ولما تأكدت أن ذلك هو الحل الوحيد والأمثل قالت لوداد بمنهتى الصدق والثقة بها، "يا حياتي، أن اليوم الذي أصحو فيه وأنت لست بجنبي يرعبني. كيف لي أن أمضي عمري بعيدة

عنك. وبينما أنا في حضن رجل يسوس حياتي سأظل أتعصر بخيالي حتى أستعيد صورتك وصوتك كي أعيش. الآن، وانت أمامي إذا فشل خيالي في أي من تفاصيلك، يمتلكني الخوف وأظل أستعيدك حتى أراك كاملة في بهائك وجمالك الخلاب. الحقيقة يا وداد أن اليوم غير الأمس. لقد وجدتك بقدرة ألهية ولن أدعك تغيبين عن عيني. من أجلك ومن أجل من نحن من النسوة، الآن أنا أقابل الحياة برباطة جأش منقطعة النظير...."

كل ما بنته وداد طوال عشر سنوات من خيبة في الزواج أخذ ينهار ببطء بعد أن قابلت صواري وشعّ أمامها بصيص نور أضاء لها الطريق بعد أن كانت مسالكها حالكة الشعاب. ولما قالت لها حبيبتها بمنتهى البساطة، "يا عزيزتي، ليكن بعلمك إذا أنا تزوجت نادر فذلك لئنني أريد أن أتزوجك انت...." صار لازما على وداد ان تبقي على شيئا من ذاك الامل المفرط وأن تستأنف الرياضة الذهنية لتستعيد تلك الثقة بالنفس التي ملكتها يوما وهي طفلة وترجع الأمل والاحساس بالمستقبل ليملئا جَوَانحها.

بعد الكثير من التفكير والحوار بعواقب زواج صواري من نادر، أعتقدت الفتاة أنها قد عثرت على السبل التي ستقنع أهلها بقبوله نسيبا لهم رغم فارق المؤهل العلمي وفارق سنّ خمسة عشر سنة بينهما. أعتقدت صواري أن أباها لن يعارض فكرة زواجها من نادر من حيث المبدأ فالرجل غني نسبيا ومن عائلة راقية ذات سمعة حسنه يستحسن النسب بهم. لقد سمعت صواري أباها أكثر من مرّة وهو يقول لأمها، "الزوج لا يعمّر مثل الزوجة. الرجل يبقى رجلا حتى لو كان أبن سبعين سنة...."

ولما أستقرتا على أن تكونا ضَرّتان، بحتثا في أستراتجية شبك نادر بصواري التي أكدت لوداد أنها لن تجد صعوبة قسوى في أغرائه ثم أقناعه بأنها تحبه. بعد ذلك أتفقتا أن تقول له صواري، والدموع على عرض خديّها، أنها تحبه ولكنها لا تستطيع القرب منه لئنه زوج صديقتها الحميمة. كان على صواري أن تقنعه بأنها لا ترغب الأساءة لوداد من قريب أو من بعيد ولا الفتن بينها وبين زوجها او خراب بيتها وإخراجها منه وذلك في حد ذاته سيوحي له أن بأمكانه أن يتزوجها لتكون ضَرةٌ لوداد. بعد أن درستا كيف ستوجه صواري نادر للزواج منها وإبقاء وداد على ذمته، صارت وداد إذا ما تواجد نادر وصواري في المحل في نفس الوقت، تترك علي عند أبوه وتغيّب نفسها بحجة او أخرى عن 'ضوء القمر' لفترة ربع ساعة لا أكثر كما شرطت عليها حبيبتها. أعتقدت وداد التي وجدت نفسها فجأة تغير على صواري من زوجها، أن خمسة عشر دقيقة طويلة بما فيه الكفايه ليعاكس نادر صواري وتوهمه بأنها ترغبه، أطول من ذلك وربما حاول الرجل فرض نفسه عليها.

وقع نادر بالفخ بسرعة لم تتوقعها المرأتان. حال خروج زوجته أنتهز نادر الفرصة وصار يتقرب من صديقتها التي لعبت دورها بمهارة مقنعة. فإذا حاكت عيناه عينيها، كانت صواري تبصّ اليّه بثبات وتبقي نظرتها صامدة في وجهه لدقيقة او أكثر قبل أن تمرقها الى أسفل لترى آثار أثارتها له. ورغبته الجنسية بمثل قوة شبقه، كانت تغيم عيناه ثم تركزان وكل حسواسه تسجل وجود الفتاة الفاتنة أمامه فيشعر وكأنها بين ذراعيه تبتسم وتضحك من السعادة. تركته صواري يفكر كما يحلو له وأنها مثله مليئة بالأشواق. أما إذا تمادى في غيه قالت له، "أرجوك، أنني لا أستطيع خيانة صديقتي...." ولم تسمح له أن يقبلها على الفم وكانت تلهث حين يلثم خدها. مع مرور الأيام قويت وثبتت مشاعر نادر أكثر وأكثر حتى صار يحلم بالبنت الخجول التي يزهو الورد على وجنتيها لمجرد قربه منها الى جانبه في السرير.

طبعا، لم يغب عن ذهن نادر بأن صواري مثلها مثل وداد تعّرف عليها لأول مرّة في دكانه وصار يفكر، ولم يخالجه شكّ في ذلك، أنه يوجد الآن أمرأة ثانية قريبة جدا من قلبه تستطيع التأثير في مصيره ولكنها أجمل بكثير من الأولى. كانت وقفة نادر أمام صواري، المرأة

الممشوقة القوام التي ترتدي الحلل البهية لتظهر أنها انثى تريد رجلا، لا غنى عنها. لفشله مع وداد أصبح نادر رجلا ذا موهبة متفجرة تمكنه من كشف كنه المرأة التي تقترب منه بمزاج مشؤب بالعاطفة. على مر العشر سنوات الفائتة صار نادر ذا طبيعة لامتناهية الخيال، يصنع في خياله المرهف ما يجب أن تكون عليه جمالية النساء. ولما شعر أن صواري تتجواب معه وتؤشر الى إحتمال زواجهما صار الجمال هي رؤيته الجديدة للعالم. طبعا الوعي والأحساس بوحدة الحب اللامرئي هما المبدأ الأساسي الذي يحرر الأنسان من الداخل فليس هناك مرآة سحرية تعكس الزمن الذي لم يأتي بعد. بالذوق الحسن يميز الرجل ويقدر قيمة العلاقة العاطفية بينه وبين المرأة التي أمامه.

"صبيحة يوم ثلاثاء الحادي عشر من نيسان عام الالفين كان اليوم الذي صار فيه محتملا يوما ما قريب أن أشارك نادر الوسادة. وبينما كان هو يحلم بوجودي الدائم في حياته، كنت أنا أتوجس وأستبعد الفكرة" كما سجلت صواري في مذكرتها. لما بدى واضحا للمرأتين أن الوقت قد أصبح ملائما لفتح موضوع زواج نادر من صواري وان على وداد أن تقترح على زوجها بلفكرة. والعائلة تتناول طعام الفطور في البرندة وعلي مشغول باللعب، بدى نادر لوداد أنه هادئ الطبع ذاك الصباح فباغتته بالموضوع وهي تقول، "صواري بنت ناس طيبون وكثير محترمة. لما تتخرج من جامعة اليرموك وترجع لعمّان ستوحشنا كثيرا...."

فوجئ نادر بذكر أسم المرأة التي كانت تشغل باله فحتى جينئذ كان واثقا تمام الثقة أن وداد لا تعلم شيئا من الذي كان يدور آبان غيباها عن المحل بينه وبين صديقتها الشابة. كي لا يفضح سرّه بقي نادر ساكتا وأستمر بالأكل وهو ينتظر ما سيكشف الحديث عنه.

بعد فاصل صغير من الصمت أضافت وداد، "أعتقد أنك تستحليها؟"

بدى نادر وهو الآن أكثر دهشة بمفاتحت زوجته له بذكر صديقتها. أدركت وداد أن سكوته كان لذهوله بأنها قد إشتّلقت عليهما فأستمرت وأبتسامة دارية في عينيها، "والله، لماذا لا تأخذها؟"

أحتفظ نادر بصمته ولعدة أيام كانت وداد تفتح الموضع بين الحين والحين. وفي أمسية هائدة أمام التلفزيون وكان لتوه قد عاد من أحدى رحاله الكثيرة الى دمشق بدى لها متعبا نفسيا وكانت رائحة الخمر على نَفَسه. بعد أن أخذ دوش وجاء على غير عادته وجلس معها فدار بينهما حديث ودود لبعض الدقائق حدثته عن الشغل بالمحل وأن كل شئ ماشي كما يرام ثم جائت بسيرة أبنهما علي وما تعلم الطفل في الروضة ذاك اليوم فأنبسط الأب كثيرا. وبعد فاصل صمت قالت وداد وهي تنوه الى السبب الحقيقي خلف سفراته المتكررة، "والله صباح صواري مثل بدر أربعة عشر وتستاهل عريس يقدرها وتقدره. الحمد لله وضعنا الأقتصادي كما تعلم جيد جدا وهذا بيتنا واسع. والله آني وصواري مثل الأخوات. وهل تغير الأخت من أختها؟ صواري بنت متعلمة وفطنة. والله آني ما بدي غير سعادتك. الله أعلم بالذي في قلبي. يكفيك سفر، يا رجل. الا تتعب؟. . ." أنهت حديثها وفي صوتها بحة صادقة.

بينما أستحسن نادر قول زوجته وفهم بما تنوه اليه، فشل فشلا ضريعا بقرأة الأشارات الواضحة التي ربطت وداد وصواري. لو أنه تخلى عن كبريائه ودقق النظر في المرأتين ربما قد سمع صوتا من أصوات مناجاتهما الخفيضة. طبعا الحب بحد ذاته لا يتصف بالجمال لأن الجمال قيمة لا تنطبق على العشق الذي هو مجرد إحساس وليس شيئا ملموسا. لذلك كغيره من الناس لم يفطن نادر الى أن الخلط بين الأخلاقي والفعل الطبيعي هو إعتقاد خطأ فقيم المجتمع العربي لا تخوض عمق العلاقات الحقيقية التي يتعلق بها بعض الأفراد سرّا. ولذلك بدون معرفة أولية، لم يكن بمقدور نادر كفرد أن ينظر الى باطنية علاقة زوجته بصواري كشئ أخر غير مقبول أجتماعيا يثير غضب أئمة الجوامع وقسوس الكنائس. أن جوهر الوضع الواقعي الذي وجد نادر

نفسه فيه كان خليطا بين الحقيقي والمتخيل فقد إستحوذ على حواسه أعجابه بالفتاة الجميلة ذات الغمّازتان اللتان تبرزان على خديها كلما أبتسمت. أن رغبته في الأنغمار في خضم الغرام معها كان بسبب عطش روحه لعلاقة كاملة مع أمرأة وتحول ذاك الى حنين بسرعة فائقة سهلت لها وداد فلم يكن أمامه وقت كافي للتأمل في الموضوع الحقيقي حتى تحول ذلك الى ماضي.

ولما جاء نادر مع أبوه وأخوه وشلة من أقاربهم ليطلبوا صواري قبلت ضد مشورة والديها الذان أعترضا بشدة على زواجها برجل يكبرها بهذا القدر وكذلك ضَرّة وهي الف من يتمناها. وبعد تخرجها وأستلامها الشهادة تزوجت صواري عريسها كما مر ذُكره.

١٢

صار نادر يبيت ليلة في سرير كل زوجة. ولخيبته، أحس أن صواري مثل وداد، تبرد عند المضاجعة. لأول مرة بدأ شيئا من الشك او بالأحرى الوهم يخالجه أن زوجتيه قد قبلتا النوم معه كواجب شرعي لتسري أمور حياتهما. كي تتجنبا النوم معه شجعته وداد أن يأتي بالمشروب الى البيت بدل أن يضيع وقته بالخمارة يمضيه في بيته مع أبنه وزوجتيه. أعدت صواري أصنافا كثيرة من المازاى التي كانت ترى أمها تحضرها لأبيها وأصحابه. كان نادر يشرب وكأن ضمأه لا يرتوي وغالبا ما بعثتاه الى الفراش سكران فيفيق في الصباح التالي بصداعا مؤلم وجفاف شديد في حلقه. وبينما كان الرجال الأخرون يقولون له، "زوج الأثنتين غلبان." لم يصدقوه عندما كان يؤكد لهم أنه وزوجتيه يسكنون معا في نفس البيت وأن الوئام بين الثلاثة ماشي على أحسن مما يرام. أخيرا توضفت صواري في البنك الأهلي وفي نفس الفرع الذي كان به حساب ‘ضؤ القمر’. وقالت وداد وكانت العائلة وقتها حول مائدة الطعام وعلي مشغول باللعب، "هكذا صار لنا عين في البنك تنتبه لحسابنا...." فضحكوا وكان حينها السرور مقيما بينهم.

وبينما كانت وداد تدير ‘ضؤ القمر’ وصواري تذهب الى الشغل، أمضى زوجهما معظم وقته في التسلية يتنقل بين المقاهي في النهار يلعب طاولة الزهر او الورق وليلا أما يزور الخمارات هو وشلته وأخوه سامر الذي كان يرافق أخاه أينما ذهب، او يحضر مشروبه معه الى البيت. لقد كان واضحا أن سامر قد بدأ يتشبه بأخيه أما عن قدوة أو عن غيرة وحسد فقد صار ينوه لأمه أنه جديا يفكر بالزواج من جديد أن وجدت له عروسا مناسبة.

كانت تصرف صواري على قدر كبير من الشبه بتصرف وداد فقد كانت هي كذلك دوما صموت وهادئة لا تبوح له بسهولة بما يخبو في صدرها وكم كان يصبو لسماع أحلامها ومشاركتها في طموحاته وهمس كلمات الغرام في أذنها. في الواقع لم تبادر صواري يوما في الأندفاع الى ذارعيه فكان هو دائما الذي يبدأ وهو الذي ينهي الأمر وهي تعطي بأستسلام بلا بجهة وبلا تبرم. الأمور الطبيعية التي مارسها الزوجان كانت بحكم العادة لا الإحتياج فلم يشتعل جسد صواري بنيران العشق التي كان نادر يشتعل بها ولذلك لم تصل الأمور بينمها الى ذروتها. تمام مثل وداد، كان كل شئ تفعله صواري مع نادر بقدر وكأنها حسبة محسوبة أجبرت عليها كحق شرعي لا أكثر ولا أقل. أراد نادر أن يكون لزوجته الجديدة ذاك الزوج الواله يدفعه الحب الى التلاشي بها فيكون هو حبيبها وحظها بالرضى وبالمقدر والمكتوب. لقد فهم نادر أن الحب بين الزوجين هي حكمة الهية أزلية وهذا ما جعله في عطش دائم لصواري لكن برودتها جعلته في نفس حال الشك التي وضعته به وداد قبل عشرة سنوات، فهي مثلها تعطي جزء بسيط من طاقتها والباقي ربما لحبيب لم تحظى به.

عاشت وداد وصواري في كنف نادر بصوت خفيض لا يسمعه أحد تسّران بما في فؤاديهما من العواطف في المنعطفات البعيدة عن الأنظار. أنقادت زوجتا نادر لموسيقى حبهما

الخفيّ تُعزفانها بهدؤ يوائم الحال التي وجدتا نفسيهما بها فلا يسمع احد من حولهما صدى ما تقوله أصوات مناجاتهما. كانت الأثنتان وكأنهما فكرة متكاملة فأصبحت الواحدة منهما هي الشئ الجميل للأخرى الذي يمثل الحياة والحب. أملتكت صواري جرأة وخيالا قويا يعبر عن ذاتية الحب الكامل فلم تكن فقط منحازة لوداد بل كانت عاطفيتا تجهاها لئن وجودها الى جانبها مثّل لها رحابة الأفق وسعة الدينا رغم ضيق المكان. لقد بلغت وداد وصواري مرحلة الأكتفاء مما أحدث فيهما إحساسا بالملل والسأم من زوجهما أدى الى رد فعل تمثل في البحث عن الطاقة الوجودية القصوى للمرأة في مواجهة الإنطلاق الحر. وهما وحدهما كانتا كائنين يقظين تتبادل أعينهما النظرات فتحول بيتهما الى نور خالص لا مصدر خارجيا له وأنما يتدفق من حمى القلبين المتقابلين.

وهكذا عاش نادر وزجتاه بما يشبه الأنسجام لمدة سنة حملت خلالها وداد للمرة الثانية. في نهاية العام الأول لزواج نادر الثاني، خلفت وداد بنتا سمتها صواري رند. فسرّ زوجها منها وقال ليثير غيرة صواري، "عقبال عندك ياعروسة...."

لكي يتسلى نادر او ربما لتشجعاه على السفر، جددوا السيارة بمرسيدس ‘قرش ونصف’ حمراء، لون صواري المفضل. ربما لمحاكات ضَرّتها ولكن في الأغلب لحاجة أمومية عضوية داخلية، بعد عاما من المحاولة فشلت صواري أن تحمل فعرضت نفسها على أخصائية النساء. بعد أن أخذت علاج من الهرمونات حملت ولكن لصغر حجمها ولشدة نحفها لتمشيها مع الموضى كان حبلها صعبا جدا. عانت صواري كثيرا من الغثيان ووجع الظهر وفي أشهر الحمل الأخيرة لشدة الألم لم تعد تستطيع القيام او الجلوس الإ بصعوبة فقد تورم كعبا قدميها ولم تعد تستطيع أن تلبس الحذاء فأخذت أيجازة مرضية من البنك. بحجة العناية بضَرّتها صارت وداد تبيت عندها. وأخيرا لما جاء المخاض لصواري كان مرهقا جدا ودام ثلاثة أيام في نهايتها خلفت توأم ولدين. فرح نادر بذلك غاية الفرح وسمّا المولدين أحمد ومحمد، على أسم أبوه وجده.

بحجة الأستمرار بالعناية بصواري ولتسعادها على العناية بالتؤام أستمرت وداد تبيت عند صواري. الإ إذا أصر نادر وعاند بشدة كانت احدى زوجتيه - وعلى الأغلب كانت وداد - تبيت معه. بعد أن وصول التؤام ، لم تعد صواري تستطيع إحتمال قرب زوجها منها ومعظم الليالي كانت تجد عذرا من الأعذار الواهية مثل: صداع شديد، إعياء بدني، أحد الطفلين مريض، كان عليها الدورة....ألخ. أخيرا جاء الوقت وصارت صواري ترفض رفضا باتا المبيت معه إذا ما طلبها دون أن تعطي السبب. في هذه الأثناء أدركت المراتان أن فائدة نادر لهما كزوج قد مضت وحاجتهما له قد أنتهت وقد حان الوقت للتخلص منه.

طبعا كان نادر يريد زوجته الشابة الجميلة أن تشتركه السرير، ولكن صواري كانت تجفل منه وترفض تودده وهدياه الكثيرة مثل قناني العطر الثمينة والخواتم والأسوار والأقراط الذهبية التي كان يجيئ بها خفيفة عن وداد ليرضيها ويشعرها أنه هي الزوجة الغالية على قلبه. لكن صواري كانت قد دخلت في مواجهة معه بكل حدة طبعها ونشوذها منه فتحول البيت السعيد الى جيحم. ولما فشلت كل الطرق لترضيها وتأتي الى فراشه طوعا، فقد نادر الصيطرة على أعصابه وصار كثير الصياح والغضب يفعط بهما لأقل سبب مهما كان تافه. مرات عديدة كانت خناقة كلامية تبدأ وهم حول مائدة الطعام، فيثور ويهيج ويكسر الصحوان ويبعثر الأكل على بلاط المطبخ. نكاية بزوجتيه اللتان لا تقطعان فرض، صار نادر يدعو أخاه وأصاحبهما ليشربوا الخمر في البيت فيسكروا ويكثر صياحهم فلا أحد بالبيت يستطيع أن ينام وتلك الجلبة قائمة.

في العام الثالث من زواج صواري كثرت الخناقات بين الرجل وزوجتيه وأنحطت الى مستوى القتال والضرب بالأيادي والرفس بالأرجل فينتهي الأمر بالأذى وجر صواري من شعر رأسها الى السرير وأغتصابها. لتحمي نفسيهما منه إذا تدهورت المشاجرة الى الضرب حبست

المرأتان نفسيهما في غرفة نوم وداد وأغلقتا بابها بالمفتاح لصده. لم يعد نادر يقدر على فهم الذي يحصل أمامه. بدل أن تقفا صفا واحد ضده، كان المفروض أن تتقاتل الزوجتان وتتحاسبا على كل صغيرة وكبيرة تصير في البيت، من من كان عليها الطبيخ ومن كان عليها مسح البلاط ولا تفرط اي منهما راضية بليلتها في حضن زوجهما. كان نادر عاجزا عن إيجاد حلا لمعضلته المتنامية فبدأ يهددهما بالزواج مرة ثالثة. فقالت وداد، وهي ترى أن ذلك كان أفضل الحلول، "ياريت يا ابو علي يا ريت. ولله على رقبتي الف عانس تقبلك. . ."

كان نادر واثقا ان الوضع مع زوجتيه لم يعد طبيعيا. بدل أن يكون بينهما تنافر الضَرّات والتنافس على إرضائه، كونتا جبهة واحدة ضده. لم يستطع نادر ان يخمن كيف أنقلب الوضع فقد بدى واضحا له أنه لم يعد السيد في داره، لدرجة أنه أنتبه أن دخول صواري الدار قد قلب الأشياء حتى إذعان وداد القديم له تبدد. لقد فلت زمام الأمر منه ولم يعد منه فائدة بالنسبة لزوجتيه وأولاده. كان صعبا جدا عليه كرجل أن يقبل هذا الأستنتاج القبيح كما سماه ولكنه لم يفكر جديا في حلّ لوضعه الغريب في بيته فكان أحيانا عبوسا يرفض الكلام مع اي منهما ثم فجأة يتحول الى بركان هائج يصيح ويصرخ ويضرب عن يمينه وعن يساره. أصبح جو البيت وأمسى وهو مشحون وغائم بضباب كثيف من الغضب ففي أية لحظة كان يمكن أن يبرق البرق ويجأر الرعد ويصعق فتقوم القائمة في البيت.

وفي يوم أخر جمعة من تشرين الأول، نشب شجار حاد بين الثلأثة. أقام نادر الدنيا وأقعدها وضرب زوجتيه ضربا شديدا بالعصى التي كان قد أحضرها الى البيت سرّا عنهما حتى هبّر أجنابهما ثم جرّ صواري من شعر رأسها وهي تصرخ وتستنجد بوداد الى حجرة نومها وبدأ في أغتصبها.

أشعل إستنجاد صواري بها ثورة غضب عارمة فأتعست مقلتا وداد حتى ملأت عيناها الكون كله، عينان حانقتان تسيطر عليهما الرغبة في الأنتقام.أخذت تنتفض من الوجع والغيض فتشنجت حواسها وزأرت كرامتها. أنتصبت وداد على طولها فبدت جبارة وقوية وهي تتوعد قدرها وتعد نفسها، "هذا أخر مشهد في هذه التمثلية الشائنة! نادر، لقد آتى اليوم لأعطيك من الألم بعضا مما أعطيتنا...."

أدخلت وداد أبنها علي والصغيرين أحمد ومحمد وأختهم رند غرفتهم. وقبل أن تغلق الباب عليهم أمرت وداد علي أن ينتبه للصغار وأن لا يخاف فبعد قليل سيعود كل شئ الى ما يرام. بأنضباطية وشجاعة رفعت وداد عصى زوجها حيث تركها ولحقت به الى حيث أخذ صواري لتقف وجها لوجه ضد الرجل الذي كان يعذبهما كلما حلي له الأمر. كانت وداد جسورة وجريئة عندما أنقذت صواري من تحت زوجها. كامرأة نفذ صبرها ووصل بها اليأس نهايته كانت وداد مستعدة أن تجازف وهي تعلم أن النتيجة قد تهدد عائلتها بالأنقراض. وداد، المرأة التي كانت يوما ما كالفأرة تتخبأ تجنبا القتال، وقفت في وجه نادر وصارت تصرخ بأعلى ما يصل اليه صوتها، "نادر، لم يعد لنا متسع للفرار من هذه المهزلة وهذه السخرية. اليوم يجب أن نقّيم معاييرنا ونعلم حددونا...."

ثم أخذت توجه اليه ضربات قاسية بهرواته مما شجع صواري النهوض عن السرير والوقوف الى جنبها. وسط الصراخ والصياح بأقصى ما تصل اليه أصواتهم، وقفت المرأتان في وجهه. بينما كانت وداد تقوم بتوجيه ضربات الهرواة وغضبها تجاه، كانت صواري تتسلل من خلفه وتعضّه ثم تهرب قبل أن يتمكن من الإمساك بها . ورغم أن المرأتين كانتا على علم يقين بأن حياتهما معا كانت مهددة وأن نادر قادر على تفرقتهما، أستمرتا في القتال وكأنهما تنتقما لما مضى من عذاب ذاقتاه. لبضع من الثانية كانتا وجهان يتألمان من جذوة الحقد الذي مسخ ملامحهما بكراهية عميقة لم تدري أيا منهما أنها كانت مخزونه في جزء غامض من صدريها

النابضين بالغضب. وهكذا تحت وطأة حرارة القتال وهما تصيحان غيظا، إذا هاجمته واحدة منهما رمت الثانية نفسها عليه بجرأة وبسالة حتى اوجعتاه بدنا وروحا. تمكنت وداد من رباطة جائشها فكانت أحدق من زوجها فسبقته في الإلتفاف حوله والتمكن من عنقه من الخلف وبقسوة تامة صارت تضغط بيديها حول رقبته وتضاعف الشدّ حتى شعر نادر أن رأسه بدأ يترنح وجسمه يرتخي ويكاد ان يسقط الى اسفل في إسترخاء شبيه بالموت. في تلك اللحظة شعر وكأن روحه قد بدأت تغادر بدنه فأنتفض جسده برجفة عظيمة ورقص برجليه حتى تملص رأسه من بين قبضة يديّ وداد ثم شرب الهواء وتنفس بعمق. الآن وهو يسترد روحه أدرك أنه لم يبقي له شيئا في هذا البيت فأخذ نفسه وخرج وإغلق باب الدار خلفه بعنف وهو يددهما بالطلاق ولم يكن قد فكر بطلاقهما علنا من قبل. لو أدرك نادر حقيقة وضع زوجتيه وأتكالهما الكامل عليه لتبقيا معا لأدرك أن طلاقهما أقسى سلاح يمتلكه. لن يفرق الطلاق نادر عنهما فقط بل سيفرق بينهما كذلك. حسب العادة المتبعة في المجتمع، ترجع المرأة المطلقة الى دار أهلها أما الأرملة فتبقى في بيتها لتربي أبنائها.

بعد أن خليت الدار لهما، أجهشت صواري باكية بصوت حيوان حبيس يشعر الغيظ ولا يملك من أمره شيئا. أدركت وداد حينئذ أن حبيبتها قد تجاوزت حدود الرعب ودخلت مرحلة الإرهاب، قانطة من المستقبل. نسيت وداد أوجاعها وقامت بملاطفة صواري وتضميد جراحها ومسح أمكان الكدمات والعضات بالماء والخل لتبردها وتلطف من شدة إزرقاقها. ولما أنتهت وداد من إعداد البيت وتنضيفه فتحت باب غرفة الأطفال وجاء ومحمد وتؤمه أحمد يتسابقان وهما على أول مشي الى حنان صدر أمهما التي حضنتهما ثم صارت تبكي. تركت وداد شغل الدار وجلست على كرسي قبالة صواري وصارت تربت على رأسها وعلى وجهها وهي تقول كلامات لطيفة لتساعدها على إسترجاع هدوئها.

أبان غياب نادر الذي طال حتى نهاية تشرين الثاني، كانت صواري في حالة قنوط شديد تتوقع أن تأتيها ورقة الطلاق في أيه لحظة فصارت تتحدث مع نفسها وهي في وحدة كئيبة. ظلت في تلك الحال الشبه مرَضية لما يزيد عن الأسبوع. وبينما كانت وداد في 'ضوء القمر'، بعد الدوام كانت صواري وحدها بالبيت مع الأطفال اللاهون باللعب وهي أما تنشد الأشعار بأقصى ما يصل اليه صوتها أو تستمع لفيرزو على المسجل. وأذا تأخرت وداد بالمحل، بعد أن تضع صواري الأطفال في أسرتهم كانت تنوح أو تستمع للأغاني فريد الأطرش الحزينة على المسجل بصوت عال وكأنها أصبيت بجنون مفاجئ. أما إذا تنهدت وصلت تنهيداتها الى أعماق روحها المعذبة وأخذت تصدر صفيرا حزينا ومستمر فبدت وكأنها وحدها في قارب عائم فوق بحر هائج تتلاقفه الأمواج. يوما بعد يوم، ورغم وجود الأطفال الأربعة عندها، بدي البيت لصواري غارقا في صمته فإزدادت حزنا وتشددا في القنوط والكئابة وصارت تفكر بجدية في إستخدام السمّ للتخلص من نادر قبل أن يطلقها ويطلق وداد فيبعد بينهما لتنهي حياتها 'لزبين' بدون حبيبة تشاركها سرّ حياتها الرهيب. في بعض الليالي مهما حاولت وداد أن تفعل لتهدئها لم تفلح فقد كانت صواري تنوح وتندب سؤ حظها في سريرها حتى الصباح ثم تظهر على مائدة الأفطار وقد تضخمت عيناها من كثرة الكباء.

في صبيحة يوم جمعة بعد أسبوعان من غياب نادر عن البيت، تقابلت المرأتان على مأئدة ألأفطار، فقالت صواري ولم تكن وداد أبدا قد فكرت بالتخلص من زوجها بهذه الطريقة من قبل، "أن الأمر في منتهى السهولة، يا وداد. سيفكر الناس في الأمر على أنه حادثة أو أنتحار. لما يأخذه السكر ويفقد وعيه ويسقط كالفريسة من الالعرق، نقوم بعصر الشوكران ثم نخلطه بزجاجة نبيذ جيدة لنضيع مرارة الطعم. طبقا لما سمعت فأن جرعة واحدة من شراب الشوكران تكفي للقضاء على حصان...."

حزّ كثيرا على قلب وداد ما قد وصلت اليه صواري من الذعر خوفا من الفراق بينهما، فأجبتها وهي تفكر بعقم الخاطرة، "يا حبيبتي، أن لنادر علينا فضل جليل فبدونه ما كنا التقينا ولا إجتمعنا تحت سقف واحد. أبعد الله عنا مثل هذه الأفكار الأجرامية. أصبري، ياعزيزتي، أن الله مع الصابرين...."

بينما كانت وداد لا تمانع التعايش مع نادر وحتى إشباع رغباته الجنسية بين الحين والأخر، كانت صواري لاتفهم لماذا عليهما البقاء معه أساسا. حتى ذلك الوقت كانت صواري لا تزال حرة التفكير أكثر من حبيبتها المطبعة على القيم العربية وأحترام حرمة الحياة وقبول حقوق الزوج على الزوجة. خلال السنوات التي عاشتها مع نادر قبل قدوم صواري، كانت وداد وزوجها قد وصلا في علاقتهما الى ما يشبه حالة التعادل في تعايشهما معا، فقد أطلقت لزوجها كامل الحرية، أن يأخذها متى شاء أو يروح ويجئ كيفما حلي الأمر له. على مر السنين تأقلمت وداد مع الواقع وقبلته. أما بالنسبة لصواري فقد كان كل شئ جديد عليها فرفضت الرضوخ المطلق لقدرها وكانت على أستعداد أن تغيره باية طريقة ممكنة. لقد كانت لا تزال صبية في بداية عمرها لها حق سماوي بالسعادة ولم يكن بعد عندها أستعداد نفسي للتنازل عن حقوقها ولو ليوم واحد. حسب تفكيرها لقد خدمهما نادر وكرجل أخذ منهما ثمن خدمته والآن أنتهت فائدته وجاء الوقت للخلاص منه بطريقة أو أخرى لتكون لها الحرية في أن تحب من تريد وتعيش مع من تريد. طبعا قيم المجتمع العربي الأنضباطية لا تسمح للمرأة بمثل هذا التفكير الحرّ. حسب الأعراف الشائعة، كل أنثى ملزمة أن تعيش تحت كنف رجل.

لعدة أيام رفضت صواري التعايش مع أفكار وداد، فأصابها الأرهاق بسبب التوتر والسهاد ولم تعد تعرف كيف تضحك ولا كيف تبتسم وتصرفت وكأنها لم تذق طعم السعادة في حياتها ابدا. كما يقال 'الوقت خير شافي' تدريجا صارت صواري تقنع نفسها بنفسها بأن وداد صائبة في رأيها وأن عليها أن تتقبل وضعها كزوجة عربية فهذا هو الأمر الطبيعي لأنسانة 'لزيبن' مثلها في مجتمع لا يعدل بين الذكر والأنثى. مع الأيام بدأت صواري تهيئ نفسها وتستعد نفسانيا لقبول تودد زوجها وسيطرته عليها. لقد تعرفت على ملامح الحياة فلاحت لها رؤيتها المستقبلية وكأنها تقرأ طالعها من خلال حثالة فنجان القهوة الحلوة. لقد رأت صواري أنه قد وجب عليها التعايش مع زوجها بسلام حتى النهاية، فوجود وداد الي جانبها سيسهل الحياة وتكونا سندا لبعضهما ضد عثرات الطريق. كانت رؤية جديدة وواقعية للمستقبل ولكنها غير متوقعة بهذه السرعة من صواري الفتاة المتعلمة والمرأة المستقلة إقتصاديا. أيقنت صواري أنها كانت مغلوبة على أمرها ولفترة لم تعد تتحدث عن الحب القديم الذي جمعها بوداد فقد صارت تتعقد تفاصيله وتزداد قيمة أقساطه.

ولما أدركت وداد أن نيران غضب صواري قد بدأت تخمد وبدت لها وكأنها مولدة جديدة، جلست معها وتحدثتا طويلا عن ظلم المجتمع وأن أردتا البقاء معا فلا حول لهما الإ الرضوخ للواقع المرّ. قالت وداد وهي تتنهد بشكل يعكس ما تفكر به، "على الأقل لن تكن حياتنا خالية كبقية النسوة 'اللزبين' اللواتي مثلنا. أنا وأنت سنقف صفا واحدا ضد كل الصعوبات الآتية. يوما ما كنت آني افكر مثلك ولكن لم يكن حولي أحد يفهم مشكلتي. أذعنت صاغرة لعذاب السرير. لعشر سنوات حملت وحدي ثقل نادر فوقي بدون ضجيج. نحن 'اللزبين' نعيش وسط نسوة أربد ووسط سبات قراها المطلة على شواطئ التاريخ الدامية. أن حياة المرأة 'اللزبين' يا حبيبتي هي مجموعة من العثرات التي سنتعرض لها معا ونعيش تحت سرّها حتى يقضي القدر أمر كان مكتوبا...."

بالرغم من أن المرأتان قد أتفقتا بأن حياتهما معا كانت في خطر شديد من نادر، الإ أنهما بعد نقاش أتفقتا ليس عليهما سوى أنتظار ما سيفعله. حوالي نهاية تشرين الثاني، أتصلت صواري بوداد من مكان عملها في البنك وأطلعتها على أخر تفاصيل حساب 'ضوء القمر' وبأنه قد أنخسف الى أقل من نصف ما كان عليه قبل إختفاء نادر كما أخبرتها بأن أخر شيك كان قد كتبه كان قد صُرف في فرع البنك الأهلي بالعقبة. لما كانت وداد تعلم أن الدار والمحل مسجلاتا بأسم زوجها فمن باب الحيطة إذا ما طلقهما أو هجرهما، عليها أن تتصرف حالا والإ خسرت هي بالذات كل شئ. كانت في يدها شئ واحد يمكن ان ينفعها وهو أن حساب البنك كان بأسمها وبأسم زوجها معا ولذلك قبل أن يتمكن نادر من إلغاء شراكتها عليها أن تتصرف حال تحسبا للظروف. لما كان نادر عادة يمضي وقته بالمقهى أو بالخمارة أو في أحدى سفراته الكثيرة، كانت وداد هي المشرفة الحقيقية على مصاريف ومرابح المحل. بعدما أنهت صواري المكالمة، مباشرة أغلقت وداد المحل وسحبت نفسها ومضت الى البنك. لما كان لوداد حساب خاص بها فتحته لما صارت أدارة المحل الفعلية بيدها (بسبب تغيب نادر المتواصل) وكان به حينئذ يقارب الأربعين الف دينار، بمساعدة صواري حوّلت اليه كل ما كان يمكن أن تحوله قبل أن يعود نادر الى أربد ويكتشف ما فعلته على عجلة. في ذاك المساء بعد أن أوت الأطفال الى أسرتهم، جلس وداد وصواري لتناقشا الوضع حسب تطور الأحداث. أقترحت صواري على وداد لتضمنا 'ضوء القمر' أن تأخذ وداد أكبر قرض ممكن من البنك بكفالة المحل وأن تحوّل القرض كذلك الى حسابها الذي صار فيه ما يقارب المائتي الف دينار.

طبعا، غياب نادر لم يؤثر ولم يغير في طريقة حياة زوجتيه وأطفالهما. إلتأمت جراح صواري وأختفى إزراق الكمدات من جسمها وفي كل صباح كانت تذهب الى مقر شغلها في النبك كالمعتاد. شُفيت وداد كذالك من أثار معركتها الحاسمة مع زوجها وبعد أن تهيئ علي للمدرسة ويأخذه الباص كانت ترتب البيت وتنضفه ثم تعد رند ومحمد وأحمد ثم تودعهم بالحضانة القريبة من البيت قبل أن تأخذ تكسي الى 'ضوء القمر'. بعد الدوام كانت صواري تشتري حاجات البيت من السوق حيث أتفقت مع وداد بأن الأسعار أرخس في حسبة البلد من أسعار سوق الحيّ وتعود الى البيت في تكسي ثم تحضر الأطفال من الحضانة. أما إذا سُؤلت أحداهن عن نادر أتفقت المرأتان أن تدعيا أنه قد ذهب الى الصين ليحضر بضاعة جديدة للمحل.

ولما أقترب تشرين الثاني من نهايته أمطرت الدنيا وأنخفضت درجة الحرارة بشكل ملموس فبدأت الناس تلبس ملابس الشتاء وحتى أنهم في بعض الأماسي أحتاجوا الى إيقاد المدافئ. كانت ليلة برد شديد ورياح الشراقي تعصف في شوارع أربد الخالية عندما صف نادر سيارته كما أعتاد أمام منزله وبقي في مقعده وصار يستمع الى الراديو بصوت خفيض. كانت الساعة قد تعدت منتصف الليل وأربد تغط في سباتها بسكون، ذاك عدى عن شحط عجلات سيارة عابرة يسوقها شاب سكران ونباح الكلاب الضالة يعلو ويهبط وهي تتبادل الأنباء عن أمكان القمامة. بقي نادر جالسا خلف إيطار القيادة الى ما يدنو من الساعة وهو يترقب ضوء غرفة صواري وينتظر أن يُطفئ . ولما نظر الى أعلا صوب شباك حجرة وداد كان ضوءها مطفي. اراد نادر الحديث مع وداد أولا وإيجاد حلا ما لوضعه في البيت. أعتقد نادر أن وداد كانت ناضجة الأفكار كما أنها أقرب لسنه لذلك يسهل الحديث معها ويتمكن أن ينقاشها.

كان نادر قد عاد الى أربد قبل ثلاثة ليالي أخذ غرفة في فندق أمية في وسط البلد. أمضى نادر نهاره وهو يتجسس على زوجتيه من بعيد وفي المساء بعد أن تغفو الجيران كان يراقب البيت حتى الحادية عشر ليلا ليرى من يدخل ويخرج منه ثم يذهب الى الخمارة ليبتاع بلطة كويناك

ويعود بها الى الفندق. كان يستأنس بالكأس حتى يسكر ثم يؤي الى سريره. خلال فترة مراقبة زوجتيه لم يلاحظ نادر اي شئ يثير الشك بهما. وبالرغم من أنه أستبعد فكرة أن يكون لأحداهما عشيق خصوصا وداد ولكن ربما صواري، في الحقيقة تمنى من كل قلبه أن تكون أحداهما قد خانته وأتخذت صاحبا لئن ذلك يجعل الوضع في بيته طبيعيا ويستطيع أن يفهمه ويسهل ان يجد له حلا بطلاق الخائنة وإعادتها الى أبيها ليتصرف معها كما يرى، فأن كان شريفا قتلها وغسل بدمها أسمه وأسم عشيرته. رغم أن واقع بيته كانت شبه واضحة له، لم يسمح نادر لنفسه ولو لثانية ان يراه بوضوح فالحقيقة التي تعيشه المرأتان كانت تناطحه منذ سنوات. كرجل عربي كان صعب جدا عليه أن يقبل الأعتراف بأن زوجتيه تناما معا لسبب جنسي. بعد أن هدأت نفسه وملّ السفر، قرر أن الوقت قد حان ليرجع الى بيته من سفرته الطويلة. في طي نفسه أراد أن نادر يعود الأمر بينه وبينهما لما كانوا عليه قبل ولادة التؤام.

طال أنتظار نادر أمام بيته وبدأ يشعر بالبرد، النور في حجرة نوم صواري ظل يحترق. شلة من الشباب السكارى خرجوا من أحد المنازل القريبة وهم يسخبون ويقهقهون ويتمازحون ومروا على الأطاريف من جانب سيارته. كي لا يروه، أطفأ نادر ماتور السيارة وخفض رأسه. ولما تعدت شلة الشباب سيارته رفع رأسه أشبته أن أحدهم كان أبن الجيران. دلف الشبان زاوية الشارع ثم أختفوا عن ناظره. أشعل محرك السيارة ثانيةً ورفع للراديو ثم لفّ الكبوت حوله بأحكام ولكنه بدأ يملّ طول الأنتظار. لما فقرأ الساعة على معصمه ولول بضيق صدر ثم شهق مقهورا، "لقد تأخر الوقت كثير. هذه الساعة تعدت الواحدة. ماذا تعمل صواري صاحية الى هذا الوقت؟" بعد قليل من تقليب الأمر همس وقد تكدرت نفسه جازعا على التؤام، "يعني محمد أو أحمد مريض؟"

على تلك الفكرة ثارت عاطفة الأبوة في صدره ولم يعد يقدر على الصبر فربما أحد الطفلين مريض وبحاجة الى طبيب. قرر نادر أن عليه أن يذهب لنجدة أبنه حالا ففي رأيه في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل لعدم وجود رجل في البيت، لم تجسر صواري على طلب الطبيب حياءً. وكأنه قد وجد السبب المقنع ليخل بيته، مباشرة أطفئ نادر ماتور السيارة ثم فتح بابها وخرج ثم بمنتهى الهدؤ أغلقه. من بين المفاتيح أطلع مفتاح الدار ثم أداره في غال الباب. لسبب باطني عاد الشك لنفسه فبدأ نادر يتباطئ بالحركة. بمنتها الهدؤ والخفة دفع ضرفة الباب ودخل، حريصا أن لا يصدر صوتا. من فتحة باب حجرة صواري المردود تدفق شعاع ضؤ وأنار جانبا من الصوفا المعتمة. لم يميز نادر اي تغير في أثاث بيته. مشى على طرف أصابع رجليه وبعناية فائقة تجاهل الضؤ وترك صواري وشأنها وخطى صوب حجرة وداد. لدهشته كلما ما دني من الممر المؤدي الى غرف النوم صار يسمع صوت مناجاة زوجتيه أتيا من الحجرة المنارة. توقف نادر عن السير ليهدأ ثورة الغضب التي مرت به وأثارت شكوكه فأنقلب مزاجه وصار يشعر برعشة بادرة تهز بدنه. فجأة ثقلت أوزاره وأنحنى ظهره لكثر همومه. تحت نفسه زمجر، "الوقحتان نائمتان معا...."

غيّر نادر أتجاهه ولازال على رؤوس أصابع قدميه وأمّ الحجرة الموضأة. من خلف ردة الباب حدق نادر بسكون الى الداخل. كان كل شيئا كما كان يتوقع. الكابوس الذي كان يلاحقه في صحوه ونومه ولا يستطيع قوله بكلامات واضحة كان أذن صحيحا. هذا هو السّحاق الذي رفض الأعتراف بوجوده في بيته منذ دخلته صواري وقلبت الأمور رأسا على عقب حتى لم يعد يحسب له حساب. فجأة صار نادر متعبا ومحطم النفس وفي وهن وضعف بدني شديد ونفسيته قابلة للأذية. لم ينبض ببنت شفة فقد كان لا يعرف ما سيقول لذلك أثر الصمت على الصياح.

كانت المرأتان في ثياب النوم تجلسان سويا على السرير وقد أركت صواري رأسها على كتف وداد. سمع زوجته الصبية تقرأ من كاتب بين يديها بصوت ناعم وأجش بالعواطف، "وقالت

صافو ذات الشعر البنفسجي ذأعت الصيت والأشعار
‘لو مثقال ذرة من الجمال
وجدت في قلب التواق
لما مسّ العار عينيه
وأعلن سرّ حبه الرهيب
على الملاء’"

أنذهل نادر ولبضع من الدقيقة تجمّد في مكانه وهو يراقب المرأتين العاشقتين وفي رأسه كان الصوت يصرخ، "يا ألهي لقد هزمت أمام امرأة؟ يا ربي ما الذي فعلته لتنتقم مني هذا الأنتقام الشنيع؟ آني أتألم من الداخل، أعاني حصرا ثقيلا في قلبي وصدري. لقد باتت تنتابني الشكوك في رجولتي. ألتف حول نفسي فلا أري شيئا وكاني في وسط عاصفة رملية لا أستطيع أن أرى فيها أبعد من أنفي. أنني أكاد أموت غرقا بسيول الكلمات التي ما عادت متجانسه. ماهذا الأثم؟ ما هذا العار الذي يحصل أمامي وفي بيتي؟ ألهي مالعمل؟"

مشوش ومرتبك ومنذهل، لم يعد يستطيع نادر التركيز ولا هو قادر على التفكير وتخيل اي شئ فلقد كان مارأه أكبر منه بكثير. فقط شعر بألم حاد في أحشائه وصداع عنيف في جمجمة رأسه. لبضعة دقائق أحتار ماذا يفعل: هل يدفع الباب ويقبض عليهما وهما عائمتان في خضم يمّ الخطايا؟ هل يصرخ ليفضحهما ويجمع الدنيا عليهما؟ هل يذهب الى المطبخ ويأتي بأكبر سكين يجدها ويذبحهما كما يُذبح فرخ الدجاج؟ لكن فكرة تلطخه بالدم لم تروق له فنادر كان دائما يكره التعقيد في حياته فأخذ أسهل الدروب وبدأ يتراجع ببطء الى الوراء، جهادا أن لا تصدر قدماه صوتا لينبههما. في الك الثواني العنيفة أنقلبت أفكاره وصار أخر شئ في راسه هو فضح زوجتيه لئنه بذلك يفضح نفسه وأهل المرأتين معه. "ماذا سيكون مستقبل أولادي؟" أقنع نادر نفسه وهو يغادر بيته بنفس الهدؤ الذي دخله وفي رأسه الصوت يدندن، "من الأفضل أن أفاتح أهل كل زوجة على حدة. ليأخذ كل أب بنته ويتصرف معها كما يري مناسبا. لن أوسخ يدي بدمهما فينتهي بي الأمر بالسجن وربما حتى الشنق...."

أغلق نادر باب داره الخارجي خلفه وأغتلفه ظلام الشارع الشاحب وصفعت وجهه الرياح الشمالية القارصة. أما جزعا أو لشدة البرد صار يرتجف فلفّ كبوته حوله وعاد الى سيارته. وبعد أن أخذ مقعده بدأ يشعر بالحمق فكل شئ كان دائما جليا وواضحا وضوح الشمس في ساعة الظهيرة لو أنه فقط قد أمعن النظر. الآن بدأ يدرك أن المرأتان قد أستغلتا ضعفه. بدأ يتمتم بصوت غير مسموع اولا حتى هجمت عليه أعراض المصيبة التي وقع فيها من كل جانب في هجوم عنيف كوابل من قذائف النار، فثار حنقه وصاح غاضبا وصار يضرب رأسه بالسقف السيارة وكرر الضرب حتى أنهار جسده كله في جعير لم يستطع كبته، "لقد أستغفلتني وداد. لقد أستغفلتني المجرمة. هي الخائنة التي زينت لي صواري وهي كاذبة. الآن فقط فهمت الحقيقة. أنني لم اتزوج صواري وأنما هي التي تزوجتها...."

أدرك نادر أن كان هناك مشكلة فهي مشكلته وحده فقط. دار في خلده شئ أخر أشد وجع وهو أنه لم يعد له مكان بيهما ولذلك سيخسر أولاده. لم يسمع نادر في يوم من الأيام أن مصيبته قد أصابت زوجا غيره. كيف له أن يخرج من هذا المأزق العقيم والحرج الذي بأعتقداه لم يصادفه رجل من قبله؟ أمنيه واحدة بدأت تعصف بقلبه وصار الصوت يصرخ في رأسه، "يارتني كنت مت وما رأيت تلك المعصية التي رأيت! ذاك الأثم الفاحش تحت سقف بيتي وأنا لازلت على قيد الحياة في هذه الليلة المشؤمة...."

وبما أن الأمر بدأ يتعقد ويغلبه فلم يعد يستطيع التركيز ولم يجد القدرة على التفكير وتخيُل اي شئ في هذه اللحظات الأولى، فالتجأ نادر الى الصلوات ليخفف ذكر الله حدّة ألمه ويستخرج

ذاته من جسده المعذب والمشوه بشتى العواطف المتطرفة التي لا تأتي الإ بهدم البيوت والأفعال الدامية التي يموت فيها الرجال. لعنف ما أصابه من إضطراب نفسي تحول الى ضجيج مزعج في رأسه، تشنجت أوردت رقبته ولهنيهة شُلتّ حركته وغدى خاوي الرأس. لم يعد مخّه يعقل وبالكاد يفكر ليقدّر المعضلة التي غرق فيها حق قدرها. فجأة شعر أنه قد سقط في قعر الجحيم ولم يعد يستطيع المقاومة الفعالة فكل شئ من حوله كان قبيح ويشدّ بعنف على عنقه ويخنق أنفاسه. لن تفيده الهزيمة والفرار ولكنه كان عازما إلا يعود اليهما أبدا سواء مع رياح الشتاء او بدونها فقد كان الآن على يقين من أنه لو عاد فأن جريمة قتلهما بيده ستكون أمر محتوما. كان ذلك يقينا من ذلك النوع الذي يستولي على عقول رجال العرب ومن المستحيل على الأوربيين والعقلانين السُكارى من أمثال أصحابه ان يستوعبوه وخاصة إذا ما كان النبيذ العجلوني المزّ القوي قد أخذ عقولهم. خارج السيارة فجأة عصفت الرياح عصفة عاتية مثل رياح التعاسة التي كانت تعصف به، لدرجة أن الرجل الذي كان قد مرّ من جوار سيارته لم يتمكن أن يصمد على قدميه فلاذ بالحائط المحجوب عن الريح حتى سكنت ضوضاء الهبوب.

بعد أن أستوى في مقعده وعادت الأفكار الى دماغه، أشعل نادر محرك السيارة ودعس على البنزين بحنق وبشدة، فقزت السيارة وكأنها أرادت أن تطير به ليهرب بعيداً عن كل هذه الأثام والخطايا الفادحة التي كانت تُرتكب في بيته وتحت كنفه. والسيارة سائرة أحذ نادر يسبّ ويشتم عاجزا عن التوقف، فصار يهذي ويردد نفس الكلامات. كان مرّة يتمتم وأخرى يصرخ ويضرب بقدمه على دوّاسة البنزين فيزعق المحرك بجلبة عنيفة. أمينه موت عميقة فجأة عصفت به فساق بسرعة جهنمية ليضع مسافة بعيدة بينه وبين بيته وشارع بيته. فجأة سمع صوت أصطدام مروع ثم سمع حداء مشؤوما بعده سكنت الضوضاء وسكت كل شئ سكوت الموت في أعماق الظلام. لم يعلم نادر أنه قد غاب عن الوجود في غيبوبة طالت بضعة دقائق قبل أن يفتح عينيه ثانية على الليل القارص. في نور السيارة التي أمامه العالي، ولدهشته ألتحمت مقدمتها بمقدمة سيارته، بدى له كل شئ واضحا فأصابه الرعب لما شعر ينزيف الدم على جبهته ووجهه. أول شئ لفت انتباهه هو أن رأسه كان خارج زجاج سيارته الأمامي والدم قد غطى كل شئ. عندما تمكن من رفع حاجبه لاحظ سيل من الدم ينبع من الجرح الغميق في الوجه الدامي الذي لا يتحرك الى جواره ويسيل فوق الأنف وتسقط بعض القطرات على شارب الشاب الكثيف. أخذت نادر بضعة لحظات قبل أن يميز أن الوجه الدامي الى جواره فوق غطاء مقدمة سيارته المهشم كان لأبن جيرانه الذي كان قد رأه قبل قليل مع أصحابه السُكارى، فأستنتج، "لابد وصار إصدام بيننا!"

فيما بعد، بعد ما يقارب العام حين أفاق من غيبوبته، علم نادر أن إصطدام فعلا قد حدث بين سيارته وسيارة الشباب السُكارى على منعطف شارع بشرَى كانت حصيلته وفاة أبن الجيران الذي كان يجلس بجوار السائق في السيارة الآخرى ونجى الأخرون، وهو منهم، بجروح مختلفة.

في تلك اللحظة، دقائق بعد الحادث، بدأ نادر يشعر بوجع شديد في رأسه ولكنه أحس بخدر شامل في بقية أجزاء جسمه فصار يندب حظه، "سوف أموت قبل أن المح الشمس ونور اليوم الجديد. أشعر أن ساعتي تدنو...." عند ذلك الأستنباط الفجائي بدأ يصلي لربه ويدعى تدعيات أمه وهي تندب سؤ حظها وتتمنى الموت لنفسها، "يا الله أنت الحق، وانت الرحمان الرحيم. آني أتوق لتستدعى روحي الى رحمتك. لقد عشت هذا القدر من عمري ولن أعرف الهرم، ذلك هو قدري...."

لهول الإكتشاف أحس نادر أن قلبه قد توقف عن النبذ وبعد ذلك بهنيهات شعر بذراعي الموت تحتضنه فأستمهل نفسه كيما يشعر بسبابته اليمين وهو يتلو الشهادة. أعتقد أنه كان ممسكا بشئ بيده لكن لم يحسه ثم بدأ يردد بعض العبرات التي ينبغي أن يتلقظ بها كل مسلم قبيل رحيله

عن الدينا. فجأة خطر له خاطر فضيع وهو أنه شبه متأكد أنه لا يشعر بيده ولا حتى ببقية جسمه. دام الصمت من حوله بضعة دقائق قبل أن بدأ يسمع صوت حركة الناس يتجمعون حول السيارة ومن بعيد آتي صياح صفارات أندار سيارات الأمن وزمار باص الأسعاف. للحظة عاد الى ذهنه ما قد رأه في بيته ولكن الفكرة كانت مؤلمة جدا فأغمض عينيه وغاب عن الوجود في غيبوبة دامت ما يدنو من الأثني عشر شهر.

أنكب أطباء كثيرون على حالة نادر ولم يفهمون كيف تمكن من البقاء حياً رغم جروحه البالغة. عندما أفاق نادر، مباشرة أدرك أن كانه مشلول من الرقبة وتحت وعلم أن جسمه وأطرافه قد بدأت بالتقلص. ولما سمع أباه يقول لأمه التي كانت تجلس على كرسي من البلاستك الأبيض وتبكي بصمت مكتوم، "حادث السير قطع الحبل الشوكي وتسبب بعطل وضرر في بقية أرجاء جسمه. أن أبا على مشلولٌ من الرقبة وما تحت. على كل الأحوال نحمد الله أنه لازال بيينا...." أيقن نادر أن وضعه كان خطيراً وتأسف جدا أنه لم يفقد ذاكرته كذلك.

بعد أن فاق من الغيبوبة كان أحيانا يدرك تماما ما قد جرى له ويتحدث لنفسه على نحو متماسك ولكنه في غالب الأوقات ما عاد واثقا بما يقوله لنفسه أو يسمعه من الأخرين من حوله فلدى أية عطفة عبارة في تفكيره، كان يهذي و يتلفظ بأمور غير مفهومة. في الواقع كانت نجاة نادر محنة أنسانية، إذ بدى مثل العجوز فقد بقي شعر بدنه صامد لكن جلده تجعد. لقد ضمر وجهه و أضمحل جسده الى كتلة لحم وحظي بحدبة. من جراء الحادثة أُصيب قفصه الصدري بتشوهات وانخفضت قدرته التنفسية. لصعوبة النطق عنده كان يختصر الكلمات التي سينطق بها فيخضعها لتنقية ذهنية لفرط ما كان يقلبها في رأسه قبل أن يختار الكلمة المناسبة التي كانت في ظنه تصف أكثر من غيرها ما كان يرغب قوله. منذُ أفاق من الغيبوبة كان قليل الكلام لكن رأسه كان لا يهدأ وهو يحاول ان يكف عن تذكار ماضيه ليكون ذاك الرجل الذي كأنه قد مات ودُفن بين الصخور في مكان بعيد ومجهول والإ كيف له أن يتعايش من الحاضر المرير؟ كان يحتاج الى الصمت والعزلة وهما أمران يصعب توفرهما في جو بيته الملئ بالأطفال.

لقد فكر نادر كثير بالسبل التي تمكنه من تفهيّم من حوله أنه الآن كائن جديد بلا ماضي أو حاضر وأن أمله بالله كان كبير ان لا يكون له مستقبل ايضا. لقد نال التلف من جسمه الشئ الكثير وعاش عقله في ظلام لا صلة له بالناس الذين كانوا ينتظرون موته. كان نادر يردد بأستمرار لنفسه، "أنا ذاك الرجل الذي ذهب ذات يوما الى العقبة ولم يعد الى أهله...."

عندما كان يجهد نفسه ويحاول أن يلف لسانه على الكلامات كانت العبارات التي ينطقها قليلة ولاتكفي لتفهم أحد ما كان يريد قوله، بل العكس كانت تضلل أؤلئك الذين كان يعتقدون أهم يفهمون قوله بحرفيته. بسبب الجهد المضني الذي كا يصرفه في الكلام، أخيرا أمتنع نادر عن النطق وعن الإدلاء باي تعليق كما أمتنع عن المشاركة بالحياة. كان يسمعهم يقولون:

"مسكين أبو علي! مازال تحت تأثير الصدمة...."

"ألا تعتقد أنه قد أصبح غريب ألاطوار؟"

"بالضبط، أنه مصدوم.... ."

"لو تعرضنا لنصف ما تعرض له، لكنا مثله او أسؤ...."

"الدنيا غدّارة...."

لفترة بعد أن أفافق من غيبوبته كانت عيناه تلتهمان الصور من دون ان تعرف ما هي ومن دون ان تنتقى منها الأفضل. كان مخه يمتص كل شئ ويحشو رأسه بكل ما كان يتعرض له. في البداية كان كل شئ يذهله، كل شئ يفتنه، فصار عنيداً في إصراره على فهم كل شئ. لم يأخذ نادر وقتا طويلا ليدرك أن سمعه قد غدى مرهفا بشكل غريب فظن أن بأمكانه ان يسمع كل شئ كان يقال ولا يفوته أمر. بعد قليل أكتشف أن ذلك مزعجا جدا أذ كانت تصل الأصوات مسمعيه

مضخّمة، وفي غمر الصمت الذي أراده لنفسه صار للطنين في أذنيه إيقاعا حادا ومتصلا.

يوما بعد يوم بدى نادر أهزل وجسده أنحل ولون خدّاه أشحب وأكثر ضمورا ووجنتاه بارزتين وأكثر خشونة. أما عيناه فكانت تطلان من خلف مقلتين غائرتين في قعر محجريهما في خضم السواد المحيط بأجفانه. في سن الخامسة والأربعين أصبح نادر أكسح فقد تعطلت قواه الحركية والحسّية في يديه ورجليه. بالرغم من أنه لم يفقد القدرة على النطق كليا، فضل نادر أن يعيش بقية أيامه في سكوت طوعي، مرّ وقارص. كانت فكرة سوداوية واحدة تجول في رأسه بأستمرار وهي أمينة الموت فقد كان باستطاعة عزرائيل ان يأتيه متى شاء. أما الألم فقد سعى نادر جاهدا أن يجعله تافها وأمرّا عابرا ينبغي أن يتجاوزه. في وسط محنته وأنعزاله عمن حوله من الناس، أصبح نادر أيمان الذي كان ضعيف، قويا وراسخا وهبّه قوة إرادة لم يسعى في طلبها.

أمضى الرجل أيامه وهو يرفض أن ينظر الى وجهه بالمرآة ولو مرّة واحدة فبعد أن عاد الى البيت من المستشفى أشار على وداد أن ترفع المرآة من الحمام وأن تزيل طاولة التسريحة فنقلتها الى حجرة الأطفال. ماعدت تمتلك نادر الحاجة الى النظر الى صورته والتعرف على من صار والتثبيت أن وجه الشخص الذي تعود أن يكونه وكان يعرفه يوما ما، قد أختفى الى الأبد خلف هذا الوجه الغريب الذي سيقابله. ربما كان ذلك أقسى شئ عليه فقد كان نادر يوما رجل ذو خيلاء وغرور يحب التأنق وحسن المظهر. تلك العادة التى كانت تمتلكه ماعادت تعنيه ففي عهد الطيش كان يغالي في تقدير نفسه ويحرق مراحل الشباب بنهم فيومها لم تكن الحياة بالنسة له سوى بداهة جميلة وسعادة آنية. من أصعب الأشياء التي لم يعد بمقدور نادر عليها هي أن يرفع ذراعه المشلول ويمرر ببطء شديد راحة يده التي فقد الحسّ بها فوق وجهه ليتفقد تضاريسه، لكنه قد أصبح كالضرير الذي لم تعد أطراف أصابعه تنبئه بشئ، فما جدوى أن يرى نفسه؟ في الواقع على المرء أولا ان يحب نفسه قليلا لكي يلقي النظر على وجهه، اما نادر فلم يعد لديه من يحب او يكره.

في كل صباح بعد أن تغيران فوطة الليل من تحت نادر ثم تحمماه وتحلقا له ذقنه في الحمام، كانت وداد وصواري تلبسانه ملابسه ثم تضعانه على كريسه المتحرك وتدفعاه الى المطبخ حيث كانت وداد تطعمه بالمعلقة مرقة خليط من أصناف لينة من المؤكولات التي وصفها لهما الطبيب. وبعد أن تعطيه صواري الأبرة المهدئة للدماغ والدواء المسكن كانت تدفع به المقعد الى البرندة ثم تغادر البيت الى شغلها. بعد ذلك بساعتين تكون وداد قد أعدت علي ورند لباص المدرسة ثم رتبت البيت وأعدت الطبيخ وجهزت محمد وأحمد وقادتهما الى دار الحضانة القريبة من البيت. قبل أن تذهب وداد الى 'ضؤ القمر' كانت توصي الخادمة التي أستوردتاها من سيرلانكا خصيصا للعناية بنادر، أن لا تنسى ابا علي في في البرندة خوفا من أن تطرحه الشمس ثم تسوق السيارة الجديدة وهو يراقبها بمرارة تكاد أن تخنقه.

ولما كانت صواري تحل من الدوام كانت تغديه من تلك المرقة ثم تمدده بمساعدة الخادمة على سريره عريان ليغفو غفوة القيلولة تحت مروحة الكهرباء الهوائية التي كانت على ظهر كرسي الى جواره. لسبب باطني لم يشرك به أحدا، صار نادر يرى زوجتيه مثل خيال عابر في حياته. كان ذلك أسهل عليّه من ان يكرههما وان يحقد عليهما وأنما نمّا في أعماقه رغبة للأنتقام منهما يوما ما. بذلك كان نادر قد تجاوز فكرة الكره والحقد على نحو قاطع لئن تلك صارت ألفاظ تعود به الى الوراء فهو الآن عديم الأكتراث بتلك الهموم القديمة. لقد غدت مشاعره ناضجة فلم يعد يجد ما يبغضه. كان ذلك علامة حال من أحوال الحرية الذهنية. أثناء هذه اللحظات أعتقد نادر أنه كان يشعر بالسيطرة الكاملة على قواه العقلية وحاول جاهدا أبقاء فكرة الموت وحدها في ذهنه.

كان الرجل يجلس وحده الساعات الطوال في كرسيه المصنوع من الأسفنج المضغوط ذو

العجلين وقد دُثر وضمد جسمه حتى أذنيه فلا تكاد أن ترى عليه علامات الحياة . كان يراقب الطريق وهو يطوي نفسه على سر رهيب تتقاتل الناس بسببه وهو يسترجع في ذاكرته صور أطلال الماضي في ميادين الوهم والخيال ويناجي أشباح الأحبة اللذين غدروا به ثم تركوه ضحية لأهوال الزمان وليس في مقدوره تحريك أصبعا واحدا لحماية نفسه. لم يدرك نادر أن حواسه الباطنية قد تطورت حتى أنه كان أحيانا بمقدوره خصوصا خلال ساعات وحدته التامة، أن تتصل روحه بالطاقة الخالقة التي يتجلى فيها روح الكون. وهكذا تكون أمنيته الإنسانية قد بلغت ذروتها فدخل في مرحلة ما بعد الأكتفاء العقلي والوهن النفسي مما أحدث فيه إحساس بالملل والسأم وكل الذي كانت تتوق اليه روحه كان الإنطلاق من مستنقع اليأس الذي أبتلعه.

في غالب الأيام، قبيل الظهيرة كان والدا نادر يزوراه ويلاحظا من خلال تنفسه الواهن الحركة الضعيفة لصدره. وهما في حالة شديدة من الحزن عليه، كان أبوه يجلس أمامه ويحدثه بما يصير في البلد وما سمعه من أخر الأخبار وهو يحاول أن يحثه على النطق ولكن عبثا. أما أمه فقد كانت تقعد الى جوار أبنها وتشكي له همّ مرضها ومرضه، فتقول والدمع رقاق في عينيها، "لن أجرؤ وأبدأ بالشكوى أمامك يأعز من روحي على جسدي. يا حبيبي، إنني أدرك كل ما تقاسيه من ألم وعذاب وهوان لأنني أشعر به مثلك. أنني مثلك غارقة في مستنقع اليأس الآسن. لا داعي لئن تحكي ليّ عن ألامك فقد أكل سرطان الرئة جسدي ونخر في عظامي فما عاد ليّ من الحياة الإ أشهر قليلة. إنني أعلم مقدار ما يستطيع الإنسان أن يتحمل من الأذى خصوصا من الأحباء الذين قرّروا أن يؤذونا والمفروض ان يكونوا سند لنا في أيامنا السوداء هذه. أن سروري كبير لأنني أراك أمامي. كنت أخاف ان تموت قبلي وفي قلبي تلك الغصّة الخانقة واللوعة الدائمة لفقدانك. الآن صارت حياتي بين يدي الله، إذا أستدعاني الى جواره أجبته، فلا خلاف لمشيئته. أنني سأموت بلادموع، بلا نحيب فقط في خواطر رقيقة والدعاء والصلاة لوجه الله والسلام على سيد البشر . قل يا حبيبي، أحك لي كيف يكون الموت. يبدو ليّ أنك قابلت عزرائيل وأنقذتك من قبضته رحمة الخالق ..."

آبان هدنة الليل، حين ينبغي أن يلزم الجميع الصمت لكي يستريح - لقد بدى له غريبا أنه كان بحاجة الى الراحة - لكن الجدران بين الغرف كانت رقيقة وحواسه مرفهة فيسمع من خلالها كل شئ كانت وداد وصاوري تقولانه، حتى همسهما. وعندما كانتا في خضم الغرام كان من المستحيل الأ يسمع جلبة أنفساهما القوية فيغدو أنينه كالنخير.

٢٠٠٧/٠٧/٢٦